

تائبون

يغسلون بالدموع خطاياهم

د/ محمود محمد عمارة

مكتبة الإيمان بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر



تأليف

د/ محمود محمد محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت: ٣٥٧٨٨٢

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

الدموع بين الوفاء والشفاء

عندماً فقدت الخنساء أخاها صخرا.. جلّت مصيبتها عن العزاء.. ولما تجمدت الدموع فى عينيها من هول الفاجعة قالت:

أعينىّ جــــودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى؟!

وإذا كانت الخنساء هنا ـ باسم الوفاء ـ تستدعى دموعها .. لتعبرّ عن مكنون حزنها... فإنها كانت فى نفس الوقت .. تستدر الدمع شفاء لقلبها من هموم ثقال. وذلك قولها:

إن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

وهكذا يقول أطباء النفوس.

فالدموع تغسل العيون.. فإذا هى صافية ساجية..ثم هى فرار من مرارة الواقع الذى يفاجئك أحيانا.. بما لا قبل لك به.. فلا تجد إلا الدموع تواجه بها الخطر الداهم... فتغسل نفسك من هموم كأنما هى الغيوم!

ومن ذلك قول البارودي:

ألا ياحمام الأبك إلفك حاضر وغصنك مياد ففيم تنـــوح

غدوت سليما فى نعيم وعبطة ولكن قلبى بالغرام جريـــــح

فإن كنت لى عونا على الشوق فاستعر لعينك دمعا فالبكاء مريـــح

وإلا فدعنى من هديلك وانصرف فليس سواءً باذل وشحيـــح

جنود الجسم وجنود النفس:

وإذا كانت كرات الدم البيضاء تشكل فى كيان الإنسان خط دفاع قوى .. يتصدى لجيوش «الميكروبات» الهاجمة ... فإن للنفس الإنسانية أيضا خط دفاع يحميه من الانهيار عند هبوب الإعصار.. ولك أن تتأمل واقعك عندما يفاجئك

بعصبية : إما أن يكف قلبك عن الخفقان.. فتموت.. وفجأة... وإما أن يكون الانتحار..

وقد يخف الواقع.. بالجنون أحيانا.. وتبقى الدموع خط الدفاع الأخير.. والتى تتجاوز بها المحنة... آمنا.. ناجيا من الهموم التى يرميك بها واقع حافل بالمشكلات والحسرات.. يقول حافظ إبراهيم :

يامن خلقت الدمع لطفا منك بالباكى الحزين
بارك لعبدك فى الدموع فإنها نعم المعين

حصن الأمان:

وقليل هم الذين يتخذون التقوى حينئذ زورقا ينجيهم من عذاب مقيم .. فالمتقون يرجعون بكل شىء إلى الله تعالى..

وقبل أن يضغط الواقع المر.. ويوشك بضغطه العالى أن يدق عظامك .. إذا بالتقوى تحميك من الانهيار. ثم تزودك بطوق النجاة قبل أن تغرق فى اليم.. ولا بأس أن يبكى المتقون.. تذللا.. وتوددا إلى الخالق سبحانه..

إنه البكاء الصابر المحتسب.. والتى تستعيد به النفس توازنها عندما تحيل القضية برمتها إلى القادر سبحانه وتعالى..

ولقد بكى ﷺ... ولكن العين تدمع.. والقلب... يخشع... ولا نقول إلا ما يرضى ربنا.. وما يرضيه هنا... هو ما قاله العارفون: الحمد لله... الذى لا يحمد على مكروه سواه.

الدموع.. هذا العطر الحلال

قال بكر بن عبد الله المزنى: [من مثلك يا ابن آدم؟ خُلّى بينك وبين المحراب: تدخل منه إذا شئت وتناجى ربك. ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان. إنما طيب المؤمنين: الماء المالح؟! هذه الدموع! فأين من يتطيبون به]؟

وهكذا: كانت القلوب رقيقة رفيقة.. ندية بذكر الله تعالى.. فكانت العيون دامعة.. بسبب من هذه القلوب الخاشعة: يبكى أصحابها.. مما عرفوا من الحق.. أو مما اجترحوا مع الخلق...

وأولئك قوم استشعروا الخطر.. فاستعدوا للسفر.. فوق أثباج أبْحُرٍ من دموعهم.. فوصلوا إلى الشاطئ سالمين آمنين.

فهل من سبيل إلى الخروج من صخب الدنيا... بالتذكار تفيض به العيون دموعا غزارا هى أغلى من كل عطر تضع ثمنه فى جيوب أعدائك.. الذين اقتحموا عليك قلبك.. فقادوك منه.. إلى ما يشتهون؟

إن رجلا عاصيًا ذكر الله خاليا.. ففاضت عيناه.. لجدير بأن يكون فى ظل الله عز وجل.. يوم لا ظل إلا ظله.

فأين الذين يبكون من خطاياهم.. فيُضَمِّخون أنفسهم بهذا العطر الحلال..؟

أين الذين يبكون على طاعة فاتتهم بعد أن وافتهم.. ومن معصية ركبتهم.. بعد أو تركتهم؟

مثل من التاريخ:

كان «الفرزدق» الشاعر الأموى يملك لسانا سليطا.. ماضيا كحد السيف.. نافذا كأنه السهم.. وكان فى طليعة مدرسة من المُجان... باعت نفسها للشيطان.. فكان أحدهم يمثل محطة إرسال متخصصة في قذف المحصنات من المؤمنات.. والتطاول على أشراف الناس.. وربما لم يسلم من لسانه بيت...

ولم يكن يدور بخلد أحد أن «الفرزدق» الهجّاء المشّاء بالنميم.. يُمْكن أن يتوب توبة نصوحا.. ومن ثم.. فقد فرغ الناس منه.. وتركوه يتمتع إلى حين ينتهى عنده وجوده.

المنقذ من الضلال:

لكن أبا هريرة رضى الله عنه وقف إلى جانبه فى محنته.. ولم يتركه لليأس يصفّيه من عناصر وجوده.. مؤملا أن يصوغ منه محطة إرسال لحساب الحق.. بنفس القوة التى كانت للباطل. وتم له ما أراد:

فقد التقى أبو هريرة رضى الله عنه بالفرزدق.. فكان بينهما ذلك الحوار الخاطف.. الهادف:

قال له أبو هريرة: [أنت الذى تقذف المحصنات؟ إنى أرى عَظْمك رقيقا.. وعرقك دقيقا ولا طاقة لك بالنار. فتبْ.. فإن التوبة مقبولة من ابن آدم حتى يطير غرابه ـ مابقيت روحه فى جسده ـ.

ثم قال له: إنه سيأتيك قوم يؤيسونك من رحمة الله.. فلا تيأس].

ولقد جاءت الموعظة فى أوانها.. على لسان داعية حكيم عارف بأصولها.. فصادفت قلبا مستعدا.. فتمكنت.

المفأجاة السارة:

وفوجئ الطائفون بالبيت الحرام.. بما لم يكن يخطر لهم على بال:

لقد رأوا الفرزدق يطوف بالبيت.. ثم يؤذن فى الناس بعهده الوثيق مع الله تعالى ألا يشتم بعد اليوم مسلما.. راصدا قلمه ولسانه للحق وحده.. غاسلا بدموع الندم ماقدم من خطايا.. وكان من شعره بعد توبته قوله:

ألم ترنى عاهدت ربى وإننى ... لبين رتاج قائم ومقام

على قسم لا أشتم الدهر مسلما ... ولا خارجا من فىّ سوءُ كلام

ألم ترنى والشعرَ أصبح بيننا ... دُروء من الإسلام ذات حوَام

بهن شفا الرحمن صدرى وقد جلا ... غشا بصرى منهن ضوء الظلام

فأصبحت أسعى فى فِكاك قلادة ... رهينة أوزار علىّ عظام

أطعتك يا إبليس سبعين حجَّة ... فلما انتهى شيبى وتم تمامى

فررت إلى ربى وأيقنت أننى ... مُلاق لأيام المنون حمامى [1]

---

(١) ديوان الفرزدق/ ٧٦٩ ط الصاوى.

وهكذا.. وبعد سبعين عاما قضاها الفرزدق فى التيه.. يدخل إلى ساحة المغفرة من أوسع الأبواب.. وما تزال ساحات الرحمة وسيعة.. رحبة.. لمن أراد أن يتخذ إليها سبيلا.

وهذه الصفحات التى نقدمها اليوم.. إنما هى حداء على طريق الأمل.. والعمل.. فى صحبة خطائين غسلوا بالدموع خطاياهم.. فعادوا إلى الصف المؤمن أطهر مما كانوا. وكانت حرارة الندم.. وغزارة الدموع.. بوتقة.. صهرتهم.. فخرجوا منها ذهبا خالصا!

د. محمود محمد عمارة

الفصل الأول

قصة الإنسان مع الدنيا

تمهيد:

فى قصة الإنسان مع الدنيا يقرر العارفون:

١ ـ يبدأ تعلق الطفل بالدنيا: باللعب.. فهو أحب شىء إليه.

٢ ـ تتطور هذه الرغبة لتصير حبا للهوى. والملابس الفاخرة. والمراكب الفارهة.

٣ ـ ثم إلى الزينة من: النساء، والبناء، والخدم.

٤ ـ ثم تجذبه الحياة.. فتتجاذبه الرغبات حتى يظن أن المجد فى: الجاه. والرئاسة. والتكاثر. والتفاخر بالأعوان.

٥ ـ ثم إذا لاحت له النذر.. ورأى بعين البصيرة فناء ذلك.. أدرك أن التقىّ هو السعيد: وذلك قوله تعالى:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١].

مصادر الشرور:

من أى باب تهب خواطر السوء؟

أ ـ من الشيطان.

ب ـ أو من النفس.

---

(١) الحديد ٢٠. راجع تفسير الفخر الرازى.

وأخطر الهواجس ما كان من الشيطان. فهو يريد أحيانا ـ فى حلقة من سلسلة مؤامراته ـ يريد إشعار الإنسان بأنه كَفَر. . فلا داعى للعبادة!

فلا شيء فيها. . ولست مسؤولا عنها. . بدليل أنك تضيق بها. وتدفعها. . بل وتشتكى منها. .

والأصل فى ذلك؛ سؤال الصحابة رسول الله ﷺ: إن أحدنا ليجد فى نفسه. ما لو سقط من شاهق لكان أهون. فقال: «ذلك صريح الإيمان»

أ ـ لأنك تنكره.

ب ـ وتدفعه.

جـ ـ وتحاول الفرار منه.

أما إذا استقرت هذه الخواطر. وطبت بها نفسا. ورضى بها قلبك. . فهذا هو الخطر الحقيقى.

أما النفس:

فإن خطرها عليك يكمن فى:

أ ـ الهوى.

ب ـ الرضا عن النفس.

جـ ـ إيثار الراحة، وابتغاء اللذة.

سلطان الهوى:

وقد يكون للإنسان علم بمضار المعصية. وآثارها فى نفسه. وفيمن حوله. ومع ذلك يقارفها تحت تأثير الهوى الغالب:

وفى هذا المعنى يقولون: (الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو داع إلى فعل الأصل المأمور به. وداع له إلى تركه. لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته).

وإذن. . فالعاصى من عجز إرادته. وغلبة هواه على خطر عظيم.

إن الرأى نائم. . والهوى يقظان. من أجل ذلك يغلب الهوى الرأى.

قال هشام بن عبد الملك: إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال.

وإذا كانت الجنة قد حفت بالشهوات. . فلا سبيل لك إليها إلا بالصبر تغالب به الهوى. . ولن تصل أبدا إلى ما تحبه إلا بالصبر على ما تكره. . ولن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهى.

وفى بيان آثار الهوى على ملكات الإنسان. ودوره فى شل حركته. يقول الإمام على رضى الله عنه:

[إياك والشهوات. وليكن مما تستعين به على كفها علمك بأنها: ملهية لعقلك. . . مهجنة لرأيك. . . شائنة لعرضك. . .شاغلة لك عن عظيم أمورك. . . مشتدة بها التبعة عليك فى آخرتك.

إنما الشهوات لعب. فإذا حضر اللعب. غاب الجد. ولن تصلح الدنيا إلا بالجد. فإذا نازعتك نفسك إلى اللهو. والملذات. فاعلم أنها قد نزعت بك إلى الشر. وأرادت بك السوء. فغالبها مغالبة القوى. ولا تداهن هواها فى اليسير. فيطمع منك فى الكثير. فليمنعك عمرك أن يطول فى غير نفع. أو يضيع مالك فى غير حق أو أن تصرف لك قوة فى غير عبادة.

ولتكن لذتك فى مجالسة العلماء. وقديما قيل: إن أسعد الناس: أدركهم لهواه إذا كان هواه فى رشده. فإذا كان هواه فى غير رشده فقد أورده المهالك وسوء العاقبة. ولا عاصم إلا بمجالسة أهل الذكر من العلماء فراراً من الهوى. .ذلك بأن عين الهوى عمياء.]

وإن لهو العلماء لهو خير من حكمة الجهلاء!

الرضا عن النفس:

ولأن الهوى إعجاب المرء بنفسه. . فقد صار الرضا عن النفس أصل كل بلاء. . قالوا :أصل كل معصية، وغفلة، وشهوة: الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا عن النفس.

وقد كان للإمام الغزالى منهجه الحكيم فى الخروج بالعاصى من ظلمة الهوى. ليعرف عيوبه.. فإذا عرف عيوبه.. صغر فى نظر نفسه. ثم عاد إلى حجمه الطبيعى مقبلا على ربه، ضارعا خاشعا.

ويتلخص منهج الغزالى هنا فيما يلى:

١ ـ أن يجلس بين يدى شيخ بصير بالعيوب. فيحكمه فى نفسه، ويتبع إرشاداته.

٢ ـ مصاحبة صديق صدوق. يُخلص له النصح. ويكون رقيبا على أحواله.

٣ ـ أن يحاول الاستفادة من أعدائه. فهم أدرى بعيوبه.

٤ ـ أن يخالط الناس مخالطةً يتوخى بها معرفة رأيهم فيه.

٥ ـ أن تكون له عين باصرة ترى ما عليه الآخرون من عادات سيئة. ثم يرقب وجود هذه العادات السيئة فى نفسه بغية تلافيها.

وسوف يخرج العاصي فى ضوء هذا المنهج بهذه الحقيقة:

من رضى عن نفسه. لم ينقذها.. ولم يميز خبيثها من طيبها... وسوف تتضخم مع الأيام آثامها.

أما من لم يرض عن نفسه. فإنه يحاول إصلاحها.. ومن ثم يساقط عنها صدأ تراكم عليها فأطفأ بريقها.

الخلود إلى الراحة:

(النفس البشرية مفطورة على ابتغاء اللذة وقصد الراحة، وترك العناء، ميالة إلى الانطلاق. ولأن الانحدار إلى المعصية أهون من التسامى إلى الطاعة... كالماء... أفلته ينحدر إلى قرارة الوادى.. وأصعده.. لا يصعد إلا بمضخة.. لذلك قل فى الناس الطائعون.. وكثر العاصون)[1].

ولكننا نلاحظ فى آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾.

نلاحظ أنه عبر في جانب الطاعة بالفعل: كسب.. وهو رمز لليسر

(١) مع الناس: للشيخ الطنطاوى.

والسهولة.. وعبر فى جانب المعصية بالفعل: اكتسب.. وفيه من المعاناة ما يشير إلى صعوبة المعصية.. وقد لاحظ العارفون أن صيرورة السيئة أمرا سهلا إنما يرجع إلى إحساس العاصى نفسه ونظره إلى المعصية.. وغفلته عمن عصاه سبحانه..

وهنا تبدأ رحلة الاستدراج:

فهو يستصغر المعصية.. فتستدعى أختها.. وهكذا.. حتى تكون رانا على قلبه لا يشعر معه بالخطر.. فيكون المقام للفعل «كسب» لا «اكتسب».

وذلك بعض ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

وقد تكون المعصية فى ذاتها صغيرة.. لكنها مع ذلك تظل تنذر بالخطر.. على ما يقول بعض العلماء:

حذار من الصغائر... فقد تحذر الكبيرة لظهورها. وإدراكك لآثارها وقسوة عقابها.. لكن الصغائر تسرقك!

ضعف الإنسان، وضغط المعصية:

وهكذا الإنسان فى غيبة الإيمان القوى: تقوى شهوته، وتبعد همته،وتتسع معرفته.. ولكن تضيق قوته! ثم يقع بين شق الرحى.. إزاء مفاتن الدنيا.. ووساوس الشيطان وهواجس النفس.. فيعصى ربه. وذلك هو البلاء المبين.. والعقبة الكئود التى فرض على الإنسان أن يقتحمها.. ودون اقتحامها عقبات وعقبات..

فإذا فررت من جاذبية النفس.. اعترضتك وساوس الشيطان.. ثم حاصرتك مباهج الدنيا.. فإذا أنت حيالها ضعيف.. ضعيف.. على ما يقول الشاعر:

مهب ريـــاح مده بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح.

وقول الآخر:

وإذا رامت الذبابة للشمس غطاء مدت عليها جنـاحـا.

وإذا بك تخوض معركة ضارية أمام جيش لجب من فتنة الدنيا وهواجس النفس، وكيد الشيطان .فهل إلى خروج من سبيل؟

كان لعلمائنا الأبرار منهجهم الراشد فى توجيه الإنسان وتبصيره بمواقع أقدامه حتى لا يضل.

وقد قام المنهج على ركيزتين: الترغيب. والترهيب.

اولاً: الترهيب:

ركز الفكر الإسلامى فى حملته التطهيرية على ما للمعصية من شؤم على الحياة والأحياء ليقدر الإنسان لرجله قبل الخطو من موضعها.

وإذا كان التنبيه على أصل الداء مدخلا إلى إنقاذ النفس من براثن المعصية. فإن التصريح بآثار المعاصى المادية والمعنوية كان جزءا من خطة العلاج. فللمعصية شؤمها على الحيوان وعلى الإنسان:

فنقص الزروع والثمار. وندرة الماء عقاب للإنسان والحيوان معا. ولأن الإنسان هو المسئول هنا.. فإن كفله من العقاب يكون أوفى: يصاب عقله.. بالنسيان. وقلبه.. بالقسوة.

ثروته الحيوانية والزراعية.. بالآفات.. حتى أنه ليرتكب الذنب.. ثم يعود إلى بيته.. فيجد أثر المعصية فى حركة ناقته!!

وعلى مستوى أسرته ترى الخلل فى علاقات العاصى كلها: فلا الزوجة تطيع. ولا الأولاد بررة. ولا الدعاء بمستجاب.. ولا العبادة مقبولة!

المعصية واقتصاد الأسرة:

نبه القرآن الكريم إلى الصلة الوطيدة بين سلوك الإنسان.. وبين وضعه الاقتصادى.. على مستوى الأسرة والأمة معا:

فعندما يحس الإنسان بذنبه.. ثم يشعر فى نفس الوقت أن له ربا يغفر الذنوب. فأقبل عليه سبحانه: يغسل وجهه بالدموع[1]. وقلبه.. بخشية الله. ولسانه.. بذكر الله. وخطايا بالتوبة النصوح..

عندما يحدث ذلك تفتح أبواب السماء.. فينزل الرزق المبارك.. وتنشق

---

(١) كان أحد الصالحين إذا بكى من خشية الله مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسّته الدموع!!

الأرض عن النبات البهيج:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[1].

فالإنسان سيد مصيره.. فهو وحده الذى يخط طريقه: إلى جنة.. أو إلى النار.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

ولقد كان أخذه تعالى أخذ عزيز مقتدر:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[3].

مثال من الواقع:

خرج كسرى أنوشروان يتنزه فعطش فسأل صاحب بستان ماء. فقال: ليس عندى ماء. فهل أحضر لك رمانة؟ فقال: أرنى رمانتك. فلما ذاقه. وجده أحلى من رمانه. فعزم كسرى على أخذ البستان ظلما. وطلب رمانة أخرى. ليتأكد من حلاوتها. ولكن الثانية لم تكن فى مثل حلاوة الأولى. فسأل البستانى عما إذا كانت من نفس الشجرة فقال: نعم.

فلما سأله كسرى: لم لم تكن فى حلاوة الأولى. فأجابه البستانى الصالح: لعلك نويت الظلم فتغير طعمها!!

---

(١) هود: ٤٤ (٢) الأعراف: ٩٦. (٣) الأعراف: ١٣٠: ١٣٣.

فقال كسرى فى نفسه: صدق الرجل والله. ثم عزم على التوبة.. وطلب ثالثة.. فكانت أحلى من الأولى، فسأل فوجدها من نفس الشجرة. فقال البستانى: لأنك أصلحت نيتك. فأصلحها الله لك!!

وتأمل كيف كانت النية.. مجردُ العزم على الظلم.. وقبل أن يقع فعلا.. كيف جرت هذا العقاب المعجل..

ثم تعجب من أناس يجعلون من حقوق الآخرين مخاضة.. يلغون فيها.. ثم لا يحسون بفداحة ما يفعلون.

مسئولية الإنسان:

فإذا لم يغير الإنسان وجهته.. هاربا من ذنبه إلى ربه. فهو مسئول عن ذنوبه.. وإن تحمل المجتمع كفلا منها. وتبدأ مسئوليته بالعزم الأكيد على فعلها.

إن إرادة المعصية تبدأ هاجسا.. فخاطرا.. فحديث نفس.. ولا تثريب على الإنسان إلى هذا الحد.. وقبل أن يتخذ قرار الانحراف.. فإذا اتخذه فهو على ما يقول ابن تيمية[1]:

(إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ـ وإن كانت خلقا لله ـ فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له، وفطره عليه. فإن الله تعالى إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له، ودله على الفطرة. كما قال النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة».

وقال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

فهو لما لم يعمل ما خُلق له. وما فطر عليه، وما أُمر به: من معرفة الله وحده، وعبادته وحده. عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصى).

---

(١) الحسنة والسيئة.

(٢) الروم: ٣٠.

ومعنى ذلك: أن الله تعالى يَسّر للعبد أسباب الزواج.. ولكنه آثر الزنا.. وشرع له التجارة رزقا حلالا.. فسرق.. فكانت عقوبته أن زُين له سوء عمله فرآه حسنا، ومضى فى الأرض حيران.

مسئولية الساكتين عن الحق:

يشن الإسلام الغارة على المعاصى.. فى شخص المتورطين فيها.. والساكتين معا.. وإذ ينذر الشارع الحكيم العصاة بعذاب الدنيا.. وعذاب الآخرة.. فإنه أشد إنذار للشياطين الخرس الذين يجلسون على كراسى المتفرجين.. تاركين الفاحشة تأخذ مجراها وكأن الأمر لا يعنيهم.. مع أن شؤم المعصية لا يصيب الذين ظلموا خاصة.. وإنما يعود على الجميع.. فيمزق الشمل الجميع:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[1].

ويترتب على ذلك: شيوع السلبية التى ينزل الله بسببها عقابه.. حين تضعف جيوش المقاومة بفعل المعاصى.. فيهجم المستعمر عليها.. بسوء اختيارها.. لما تفرقت.. فمهدت بالتفرق الطريق ليعيث المستعمر فى ديارها فسادا.

قال ﷺ: **«ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى فيقدرون على أن يغيروا ولا يغيرون إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا»**.

والحديث الشريف يحمل القادرين على الإنذار مسئولية التصدى للعصاة.. وحتى لو كان رجلا واحدا.. فلا يفلتُ من المسئولية.. وعليه أن يقول كلمته ويمضى.. ولو كان يواجه أمة بأكملها.. شريطة أن تكون الوسيلة شريفة.. وبخاصة حين لا تتكافأ القوى.. ورب قطرة واحدة من العسل.. تصطاد من الذباب أكثر مما يصطاد برميل من العلقم.

إن خطورة المعاصى تكمن فى أن آثارها قد لا ترى بالعين المجردة.. وإذا رُئيت.. فعلى المدى البعيد.. عكس ما يترتب على المخالفات المادية من أثر ملحوظ ملموس.. من أجل ذلك يستهين بها الناس.. بينما تتسرب إلى جسم

---

(١) الأنفال: ٢٥.

الأمة كالسم البطيء.. ويكفى أن تعلم أن المعاصى:

١ - تستنزل بها غضب الله تعالى.

٢ - وهى تثير بين صفوف الأمة الخصومات والعداوات.. الأمر الذى ينعكس على النتاج كما وكيفا.. وعلى الخدمات ضمورا وفسادا.

٣ - بالإضافة إلى أنها تمتص من القلوب رحيق العافية.. لأنها تمحو من النفوس خلائق: الغيرة.. والأنفة.. وتطمس البصيرة.. وتشل الإرادة.. وسوف تصير الحياة فى غياب هذه القيم ظلمات بعضها فوق بعض.. ويصير العاصى حطبا للنار.. جزاء ما أوقد فى المجتمع من نار!

ومن مآثر الزوجات الصالحات هنا.. أن الزوجة التقية كانت تقول لزوجها إذا خرج من منزله.

إياك وكسب الحرام.. فإننا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار.

فأين هذه من بعض زوجات اليوم.. والتى لا يكفيها أن تدخل النار وحدها.. وإنما تصر على أن تجر من ورائها زوجها.. وولدها.. حين تلح فى طلب الثوب الغالى.. والسياحة الباهظة.. فتفرض على الزوج المغلوب على أمره أن يقترض.. ثم تتراكم الديون.. حتى إذا عجز عن السداد.. مد يده إلى ما هو مؤتمن عليه من مال الغير. فمال ميزان البيت.. وآذنت سعادته بمغيب!

وليت شعرى أن تلك الزوجة الصالحة.. الناصحة.. لأسعد حالا.. حين يعود زوجها بجيبه خاليا من المال.. ثم بقلبه عامرا بما هو أغلى من المال.. بالقناعة والرضا.. ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

مجرمون خارج القفص:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

إذا قال الشاعر الحكيم: أحب الصالحين ولست منهم.. فإنه بهذا الحب يضع

---

(١) النور: ١٩.

قدمه على طريقهم. . ليصل مع الأيام إلى مثل ما وصلوا إليه. وذلك قوله: لعل الله يرزقنى الصلاحا.

إن إرادته وإن لم ترشحه اليوم ليكون صالحا. . فإن قلبه المتعلق بالصالحين سوف يسلكه مع من أحب. . إن لم يكن اليوم فغدا. . وهو ماض على الطريق مع زميله الذى عصى ربه زمنا ولكنه تضرع إليه قائلا:

اللهم إنى عصيتك . . ولكنى أحب من أطاعك. . فاغفر لى!

إنها أنفس تحمل قلوبا فيها صلاحية الطاعة. . غير أنها لا تملك الإرادة التى تنفذ بها إرادة الحق سبحانه. . فإذا رأت الطائعين أسعدها ذلك. . من حيث كانت طاعة الطائعين أملا فى صدورهم يحققه الآخرون نيابة عنهم. . إلى أن يأذن تعالى بصحبتهم.

ولكن الآية الكريمة تتحدث عن صنف آخر. . يناقض مسلك هؤلاء الذين يخوضون الغمرات شوقا إلى الطاعة. . تتحدث عن أناس: ترى أحدهم. . قد لا يرتكب الفاحشة فى الواقع لسبب ما. . لكنه يحب أن تصير هذه الفاحشة ظاهرة اجتماعية متفشية. . وبالذات فى الذين آمنوا. . وهذا هو أمله وعمله!

لقد كان المتوقع إذا لم يستطع أن يكون جبلا. . أن يكون هضبة. . أو ربوة. . إذا لم تطاوعه نفسه ليكون صالحا. . أيحب الصالحين. . ويبغض العاصين. . انتظارا للحظة حاسمة. . تحمل إليه النجدة ليصل إلى مثل ما وصلوا إليه.

لكنه لم يفعل. . وآثر الانضمام إلى رفقة السوء. . وذلك يعنى أن فى كيانه ضميرا خربا. . بل وأتونا يتفجر بالحقد يقف به فى طليعة العصاة.

وقد تعلمنا صغارا: أن الله تعالى قد يغفر للمجرم. . لكنه لا يغفر لمن يتستر عليه!

إن المذنب قد يكون واقعا تحت ظروف نفسية أو اجتماعية فكان ضحية لجريمة هو غير مستعد لها أساسا. . ولكن. . ما بال هذا الذى لا يرضيه إلا شيوع الفاحشة فى المجتمع المؤمن. . ليصبح فوضى بلا قيادة راشدة؟

إن هواة الإثم يتجهون إلى الشر دائما. . وهواهم يعايش العصاة فى كل

مكان.. تدفعهم الرغبة الملحة أن يزيد العصاة واحدا.. هو نفسه.. لولا عجزه عن العصيان.. إنه مجرم.. لكنه خارج القفص.

لقد علمتنا السنة المطهرة أن الرجل يشهد المعصية يعمل بها.. فيكرهها، فيكون كمن غاب عنها.. ويغيب عنها.. فيرضاها.. فيكون كمن شهدها.

إن هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا.. الذين لم تكن أمنيتهم مجرد رغبة في شيوعها.. بل صارت الرغبة عاطفة سائدة راسخة فى قلوبهم.. هؤلاء الناس لهم عذاب أليم فى الدنيا.. كلما رأوا الأطهار الأبرار بين أيديهم يمارسون الطهر عملا.. وإنهم ليقتلون أنفسهم فى اليوم... مرات ومرات كمدا، ولهم كذلك عذاب فى الآخرة لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.. وعلى المؤمنين اليوم أن يحذروا حتى لا يكونوا من هؤلاء:

إنك بالغفلة توشك أن تكون منهم.. مع كل الذين يمهدون السبيل إلى المعصية: بالنغمة المتكسرة... بالكلمة الخبيثة.. بالصورة المثيرة... إنهم على خطر عظيم... فليأخذوا حذرهم.

ونقرأ تعليقا على الآية الكريمة نثبته.. تحذيراً للمفرطين:

[إن الأسماع التى لم يطرقها حديث الفحشاء تجد أصحابها فى أكمل نفرة من خطراتها على نفوسهم، فإذا ما طرق سمع أحدهم حديث فحش مرة اشمأزت نفسه من هذا الأمر، وملكه من الهلع والذعر الشىء الكبير، فإذا ما تكرر على سمعه مرة أخرى كان اشمئزازه ونفرته أقل، فلا يزال يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمرا مألوفا لا يستنكر ولا ينفر منه، وقد يزيد حتى يستمرئ الحديث ويصغى إليه، وهنا تنفتح أمامه هوة التدهور فيتردى فيه وقد مات حارسه وهو عاطفة الاستنكار والنفرة، فترى بذلك أن حُبَّ شيوع الحديث كحب شيوع نفس الفاحشة، فلا جرم عبر به عنه. ومما يزيدك استبصارا فى هذا ما ترى من تحرج الآباء عن ذكر مثل هذه الأخبار أمام أبنائهم الأحداث، فما ذاك إلا لما وقر فى النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس إليه فيرُدى فيه، وهل يشك أحد فى أن من أساليب الترغيب فى الشىء خيرا كان أو شرا تكرار ذكر حوادثه وتفاصيل شئونه؟ وهل يربى الشجاعة والكرم في النفوس مثل أخبار الشجعان والأجواد؟

فهذا من سر التعبير بقوله: ﴿يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ إلخ.

وإذا كان ذكر الفاحشة مستكرها على كل حال فإن للتعبير بهذا اللفظ هنا جمالا ياله من جمال، فقد بين به ما يحمل على النفرة منه، واختير على لفظ الزنى تحاميا عن ذكره فى هذا الموطن ولو بطريق النفى مبالغة فى تطهير من جاءت هذه الآيات لتطهيرها، ثم ليعم جميع أنواع الفحش، وأما قوله جل شأنه: ﴿فى الذين آمنوا﴾ ففيه إثبات ما هو كدليل البراءة والتكذيب للأفاكين، وهو إيمان من وجه إليهم من هذا الرمى الشنيع، وما كان المؤمن الصحيح الإيمان مظنة لهذه المنكرات، كما أشير إلى ذلك بقوله عز وجل فيما تقدم: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا﴾.

وفيه مع هذا لفت نظرهم إلى ما فى أنفسهم مما يمنعهم من هذا الفحش، وأنهم ليجدون من أنفسهم أن إيمانهم يمنعهم من مقارفته منه، فحقهم أن يقيسوا إيمان من رموهم على إيمانهم، وهذا كما يفهم من التعبير عن المرمين ﴿بأنفسهم﴾ فى الآية السابقة.]

وبعد: فيالها من مأساة تجل عن العزاء... مأساة أناس يحزنهم رؤية حاضرك نظيفا طاهرا فيصطادون من ماضيك ما تبت منه وقُبلت توبتك.. ولا يزالون مصرين على التفتيش فى الدفاتر القديمة ليعكروا بها الجو.. فلم يتعودوا العيش فى الجو النظيف!!

ثانياً: الترغيب:

ونتساءل أولا عن موانع التوبة..

ومن هذه الموانع:

١ ـ التسويف.

٢ ـ قرناء السوء.

٣ ـ استصغار الذنب.

٤ ـ الجهل بنتائج المعصية.

٥ ـ الغفلة عن عقابها.

٦ ـ الاستمرار في المعصية يجعل القلب يقسو.. ويأخذ خطوات إلى

الخلف . . بعيدا عن الضوء البازغ فى الأفق.

يحدث هذا مع أن الله تعالى . . كما قال ﷺ:

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

إنه تصوير بلاغي: يبين كرمه تعالى وشدة طلبه لتوبتهم، وتأكيد قبوله لها.

والمقصود: إعلام الخطائين: لا تيأسوا. وتنطووا على أنفسكم. . حتى لا ينهاروا بين ركام المعاصي. فيستغلها الشيطان فرصة له.

والحديث:

أ ـ دلالة على التسامح.

ب ـ درس للدعاة فى بث التفاؤل والأمل

لقد كان ﷺ عزاء للخطائين العائدين بالتوبة إلى مكانهم فى الصف الإسلامى. على ما أشرنا فى حديث سابق.

وعلى دربه سار العارفون من أمته. فكانوا للعصاة عزاء وسلوى. منطلقين فى ذلك من طبيعة مؤمنة راحمة:

أ ـ تؤمن إيمانا راسخا بسعة رحمته سبحانه وتعالى.

ب ـ تقدر طبيعة الإنسان الضعيفة فى مواجهة إغراء المعصية الجاذب.

جـ ـ متسلحة فى نفس الوقت بروح الأمل والتفاؤل فى مستقبل أفضل. تدير فيه ظهرها للشيطان. . ثم تمضى قدما على حداء الإيمان.

د ـ دوام الاستغفار إلى أن يفتح باب المغفرة لمدمن الطرق حتما.

*****

منارات على الطريق

كان من رحمة الله تعالى أن بث على جانبى الطريق أتقياء أصفياء.. يدلون الحيارى ليعودوا إلى الله تعالى فى ظلال من سعة رحمته سبحانه.

عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن إبليس قال لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم

فقال الله عز وجل: «فبعزتى وجلالى: لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى»[1].

ومعنى ذلك: أن الله مع العاصى.. شريطة أن يحس بذنبه ويطلب الغفران.

وقد كان الإحساس برحمة الله وكفالته لعبده عميقا حتى على مستوى الطفولة النابتة فى ظل هذه النظرة العاقلة المتفائلة.

مر أحد الأمراء ببيت حاتم الأصم. وكان عطشان. فطلب شربة ماء. فأتوه بقدح فشرب حتى ارتوى. ثم أعطى أهل هذا البيت بعض المال ففرحوا به. إلا بنتا صغيرة؟! فإنها بكت! فقالوا لها: ما يبكيك؟ قالت: مخلوق نظر إلينا.. فاستغنينا.. فكيف لو نظر إلينا الخالق عز وجل ؟!

وهو لون من التوكل يضرب جذوره فى قلب بنت ما تزال غضة طرية.. ثم يفجر دموع الفرح تفيض بها عيناها.. ثقة بالله عز وجل.. وأملا فيه.. وتوكلا عليه.. وتفويضا إليه.. على نحو لا يحققه ألف كتاب فى علم التوحيد.. بينما رسخته بيئة مسلمة.. تقدم للمجتمع هذا الأنموذج الفذ.. تبصرة وذكرى.

*****

(١) المسند ٣/٢٨. ط المكتب الإسلامى

عائدون.. على حداء الإيمان

قال المزنى: دخلت على الشافعى فى علته التى مات فيها فقلت: كيف أصبحت؟

قال: أصبحت من الدنيا راحلا. وللإخوان مفارقا. ولكأس المنية شاربا. ولسوء الأعمال ملاقيا. وعلى الله واردا. فلا أدرى: أروحى تصير إلى الجنة.. فأحيِّيها.. أم إلى النار.. فأعزيها؟!

وإذ يهضم الشافعى نفسه إلى هذا الحد.. فإن له إخوة على الطريق.. كان لهم فى الله آمال كبار.

قال أحد الصالحين: دخلت مع بعض إخوانى على رجل من العباد. نزوره.

فقلنا له: كيف تجدك؟

قال: ذنوب كثيرة ونفس ضعيفة. وحسنات قليلة. وسفر طويل.

قلنا له: فما معك من الزاد؟

قال: معى الأمل فى الله. ثم أخذ يبكى. ويتشهد. حتى مات.

الخليفة الأواه:

ولقد كان عمر بن عبد العزيز واحدا ممن ملأ الأمل قلوبهم على ما كان له من إحساس عميق بتقصيره:

صلى عمر بن عبد العزيز وهو خليفة صلاة الصبح بالمسلمين.. ثم عاد إلى البيت. وهو ينتحب مع فاطمة زوجته. بنت عبد الملك. ابنة عمه. وولده.

لو رآهم راء. لقال: بين أيديهم جنازة! ومع هذا فأمله فى عفو الله لا يزايله أبدا ولآخر لحظة من عمره: فكان يدعو:

اللهم إنك قلت: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾.. فإن كنت تعلم أنى محسن.. فاغفر لى... وإلا.. فقد قلت: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾..

فإن كنت تعلم أنى مؤمن.. فاغفر لى.. فإن لم أكن أهلا.. فأنت أهل للمغفرة وأنت القائل: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾.. وإلا فأنا فى مصيبة.. فاغفر لى لأنك سبحانك قلت:

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

فتأمل كيف يمضى فى رحلة الأمل إلى نهاية الشوط.. فى صحبة يقين جازم برحمته.. سبحانه.. مهما كانت ذنوبه.

العودة الميسرة:

وقد كان لهذا التفاؤل ما يسوغه فى دين الله:

فالمسلم العاصى لا يخسر بالمعصية إيمانه.. وإلا كانت المأساة فاجعة.. ولكنه يحتفظ بإيمانه.. وإذن فرجوعه إليه تعالى ممكن.. مادام الحبل مربوطا بالإيمان المكين.

يقول العلماء: التوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات:

فإن من ترك واجبا أو قبيحا يعتقد وجوبه وقبحه. كان ذلك الاعتقاد داعيا له إلى فعل الواجب ومانعا من فعل القبيح. فلا يكون فى فعله وتركه ثابت الدواعى والصوارف. بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة.

ولهذا يكون الغالب على هذا هو التلوم. وتكون نفسه لوامة: تارة يؤدى الواجب. وتارة يتركه... تارة يتركون القبيح. وتارة يفعلونه.

كما نجده فى كثير من فساق القبلة. الذين يؤدون الحقوق تارة. وتارة يمنعونها. ويفعلون السيئات تارة. ويتركونها أخرى. لتعارض الإرادات فى قلوبهم.

إذ معهم أصل الإيمان والذى يأمر بفعل الواجب، وينهى عن فعل القبيح. ومعهم من الشبهات والشهوات ما يدعوهم إلى خلاف ذلك.

قرار الإفراج:

وبهذا الإحساس النبيل يخرج المذنب من ظلمة السجن.. سجن المعصية إلى نور الطاعة.. ولا يزال يحقق كل يوم نصرا على هواه.. فإذا هو فى مملكته السيد المطاع..

وكما يقرر العارفون: لا يزال المؤمن يخرج من الظلمات إلى النور.. فيزداد هدى.. فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن له من قبل. فتتمكن توبته مما فعل. ومن شأن التوبة تصفية القلب. وصقله. وتجلية ما عرض له من آثار الذنوب.

ذلك بأن الإنسان بظلمه يكون طاغيا.. مستكبرا.. بعدم العلم. وبجهله يكون ضالا.. بلا علم.

فإذا صحا بالتوبة.. كان له من ضمانة الإيمان فى قلبه ما يدفعه إلى الأمام.. فإذا يومه أفضل من أمسه.. وغده أفضل من يومه: لأنه يعمل الحسنة.. فيثبته الله عليها بحسنة أخرى.. جزاء من جنس العمل..

وهكذا تتسع دائرة علمه.. فيزيده الله تعالى هدى ينكشف به المسلك.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[1]. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2].

مجاهدون فى سبيل الله:

وإذن.. فالذين يحاولون الخروج من ضيق المعصية إلى سعة الفضيلة مجاهدون.. وبين أعطافهم نفس لوامة تسوقهم.. إلى النور.. والطهر.. إلى دنيا جديدة يولدون فيها من جديد.. يقول أحد الباحثين:

[والوحدة بالنسبة لهذه النفس ليست وحشة بل أنساً.. وليست خواء بل امتلاء. وليست فراغا بل انشغالا. وليست صمتا بل حواراً داخليا واستشرافا نورانيا وهى ليست وحدة بل حصن أمن.

---

(١) مريم: ٧٦.	(٢) العنكبوت: ٦٩.

ومشاعر تلك النفس منسابة مع الكون متآلفة مع قوانينه متوافقة مع سننه متكيفة بسهولة مع المتغيرات حولها.. فيها سلاسة طبيعية وبساطة تلقائية.. تلتمس الصداقة مع كل شيء. ومثالها الكامل هو النبى محمد عليه الصلاة والسلام حينما كان يحتضن جبل أحد ويقول.. هذا جبل يحبنا ونحبه.. فالمحبة الشاملة هي أصل جميع مشاعرها... إنها فى صلح دائم مع الطبيعة ومع القدر ومع الله... وعذابها الوحيد خطيئتها وإحساسها بالبعد والانفصال عن خالقها.. وهو عذاب يخفف منه الإيمان بأن الله عفو كريم تواب يحب عباده الأوابين المستغفرين. وهى أقرب ما تكون إلى ربها وهى ساجدة ذائبة حبا وخشوعا.

وذلك معراجها الذى تكون فيه قاب قوسين أو أدنى من النبع والمَنْهل وتكون فيه أشبه بنغمة شاردة تعود فتلتحم بالسيمفونية الموسيقية للوجود وترتعش أوتارها رعشة الانسجام الشامل فى لذة روحية عظمى.. لا يعرفها إلا من ذاقها وكابدها.

يقول العارفون الأكابر: نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف ولكن أنى للملوك أن يعرفوها وهم غرقى الدنيا وسجناء ماديتها.

والدين وطاعته ومجاهدته هو السبيل إلى ميلاد تلك النفس وخروجها من شرنقتها الطينية.

ولا يوجد سبيل آخر لميلادها.. فالعلم لا يلد إلا غرورا والفن لا يلد إلا تألها.. والدين وحده هو المحضن الذى تتكامل فيه النفس وتبلغ غايتها. وبين العلماء مرضى نفوس مشغولون باختراع القنابل والغازات السامة.

وبين الفنانين متألهون بوهيميون غرقى اللذائذ الحسية. والدين وحده هو سبيل النفس إلى كمالها ونجاتها وشفائها. والنفس المؤمنة نفس عاملة ناشطة فى خدمة الآخرين ونجدتهم لا يقطعها تأملها عن الشارع والسوق وزحام الأرزاق. والعمل عندها عبادة والعرق والكدح علاج ودواء وشفاء من الترف وأمراض الكسل والتبطل. حياتها رحلة أشواق.. ومشوار علم.. ورسالة خدمة.

والعمل بابها إلى الصحة النفسية ومنتهى أملها أن تظل قادرة على العمل حتى النفس الأخير وأن تموت وهى تغرس شجرة أو تبنى جدارا أو توقد شمعة.

تلك النفس هى قارب نجاة وهى فى حفظ من أى مرض نفسى ولا حاجة بها

إلى طب هذه الأيام فحياتها فى ذاتها روشتة سعادة.]

تجربة آلمتنى، لكنها علمتنى:

تسلق الفضيل بن عياض جدار لامرأة يحبها. فسمع قارئا يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

فقال: انتهيت يارب! ثم عاد إلى مكان خرب. فسمع ناسا مسافرين يقول قائلهم: لا نسافر بالليل.. خوفا من الفضيل.. فلما سمع ذلك تأثر.. ثم صار من بعد سيد العبّاد.. ذلك بأنه عرف طريق العودة.. فلما قرر فتح صفحة جديدة مع ربه وجد طريق العودة سهلا ممهودا..

وإذا تصور ـ بفعل الشيطان ـ حجم ذنوبه الخالية.. وإذا أخرسه الذنب لحظة.. فقد أنطقه كرمه سبحانه وتعالى. وإذا كان له من السوء أوصاف.. فقد هبطت عليه من الله ألطاف..

لقد كان يملك من المال المسروق ذهبا.. فذهب به فى كل مكان إلا أن يصعد فى السماء.. وملك يقطع الطريق من المتع ألوانا. لكنه لم يملك قلب أحد! فلما حانت ساعة الخلاص تداركه رحمة من ربه.

رفقة الخير:

وكان له على طريق العودة رفاق ذابت أفئدتهم من حرارة الدعاء.. مدفوعين بالنفس اللوامة إلى ساحات الرضوان يحدوهم الأمل فى المغفرة.

ومنهم ذلك الأعرابى الذى ناجى ربه تعالى وهو متعلق بأستار الكعبة فقال: اللهم إن قوما آمنوا بك بألسنتهم ليحقنوا دماءهم فأدركوا ما أملوا...وقد آمنا بك بقلوبنا لتجيرنا من عذابك فبلغنا ما أملناه.

وحتى لو نزغه من الشيطان نزغ.. فإن الأمل فى المغفرة لا يخبو بريقه ومنه هذه الضراعة:

---

(١) الحديد: ١٦.

اللهم إنى أستغفرك لما تبت منه. ثم عدت فيه. وأستغفرك لما وعدتك من نفسى. وأخلفتك. وأستغفرك لما أردت به وجهك فخالطة ما ليس لك. وأستغفرك للنعم التى أنعمت بها على فتقويت بها على معصيتك . وأستغفرك لكل ذنب أتيته. أو معصية ارتكبتها.

وفى اللحظات التى توشك هجمة اليأس أن تعود به إلى الوراء.. تستمسك يده بحبل الأمل المتين قائلا:

اللهم إن استغفارى إياك مع كثرة ذنوبى.. للؤم.. وإنى تركى استغفارك مع معرفتى بسعة رحمتك لعجز.

إلهى: كم تحببت إلى بنعمتك.. وأنت غنى عنى.. وكم تبغضت إليك بذنوبى وأنا فقير إليك. سبحان من إذا توعد عفا.. وإذا وعد وفى. يامن قل عند نعمته شكرى. فلم يحرمنى. وقل عند المصيبة صبرى فلم يخذلُنى.

معنى هذا الاستغفار:

إن هذا الاستغفار الضارع يعنى أن المذنب قد وضع أصابعه على بيت الداء..ثم تلمس فى حياته آثاره فكان على موعد مع قرار العودة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح..

بمعنى أنه: ندم على مامضى. وتوقف مسلسل الخطأ. ثم عزم على عدم العودة إلى سالف العهد.

وللندم هنا أبعاده المترامية. فليس هو حركة نفسية عارضة وإنما هو: اعتقاد قبح ماندم على فعله. ثم بغضه. وكراهيته. والإحساس الدائم بالألم ينغص عليه حياته. وعندئذ .. يصل المذنب إلى شاطئ الأمان.

من آثار اللطف الإلهى:

قد يبدو الموقف صعبا أحيانا.. عندما يمضى الإنسان عمره كله قانتا لله حنيفا ثم يستدرجه الشيطان يوما فيوسوس له بمعصية لم تكن لتخطر له على بال..

فى هذه اللحظة بالذات.. يهجم اليأس القاتل.. ولكن لطف الله تعالى يشمل العابد المخطئ بفيض من رحمته.. فيلهمه الصواب.. ويوفقه إلى مافيه نجاته من الذنب فرض عليه فرضا: قال ﷺ: «تعبد عابد من بنى إسرائيل.. فعبد الله فى صومعته ستين عاما.. فأمطرت الأرض. فاخضرت. وأشرف الراهب من صومعته. فقال لونزلت فذكرت الله. فازددت خيرا.. فنزل.. ومعه رغيف. أو رغيفان. فبينما هو فى الأرض. لقيته امرأة. فلم يزل يكلمها. وتكلمه. حتى غشيها ـ زنى بها ـ ثم أغمى عليه. فنزل الغدير يستحم. فجاء سائل. فاومأ إليه ـ أن يأخذ الرغيفين. ثم مات. فوزنت عبادة ستين سنة. بتلك الزنية. فرجحت تلك الزنية بحسناته. ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته. فرجحت حسناته فغفر له».

ولاحظ هنا كيف كان الاختلاط.. ومحادثة الرجل المرأة.. سبيلا إلى إيقاظ الشهوة التى كانت نائمة.. فالرجل هنا طاهر. نظيف القلب.. لكنه لما حام حول الحمى وقع فيه فعلا.

لكن النفس اللوامة كانت من القوة إلى حد أن أغمى عليه عندما تصور هول ما صنع.. لكنه وفى اللحظات الأخيرة يشير إلى السائل ليأخذ الرغيفين.. فرجحت بهما كفة الخير!

ولقد أشار الحديث الشريف.. إلى أبواب من الخير تنقذ الخطائين من براثن المعصية ومنها إطعام الطعام: فلا يظن أحد أن ثمن التوبة هنا زهيد.. فكيف يكون واصلا به إلى المغفرة.. لأن ذلك الرغيف رمز للصدقة التى تدفع الفقر.. وإذا كان الفقر بابا إلى شرور كثيرة.. فقد ظهر كيف كانت هذه الصدقة مانعة من هذه الشرور.. فإذا كان من حقنا أن نهاجم العاصى هنا.. فإن من واجبنا أن نذكر ما قدم من عمل صان الله الأمة به من هموم كثيرة..

عندما يستيقظ الضمير:

وعندما يسقط المرء يوما فى حمأة الرذيلة.. فجأة.. وبلا ترصد أو احتراف. فإن الإسلام يقدر لحظة الضعف الإنسانى.. ويمسك بيد الجانى لينهض من جديد:

اغتصاب ثم كان المتاب:

عن علقمه بن وائل. عن أبيه: أن رجلا اغتصب امرأة. في ظلمة الصباح. وهي تسعى إلى المسجد. وفعل بها الفاحشة. وقد استغاثت المرأة برجل آخر. فهرب الذي فعل بها الفاحشة. وانطلق الرجل الآخر وراءه. ثم مر عليها جماعة آخرون. فاستغاثت بهم. فانطلقوا وراء الرجل. ولكنهم أدركوا الرجل الثاني منطلقا. فظنوا أنه هو الذي أجرم. فأمسكوا به. وقادوه إلى المرأة. فأمسك به الجماعة. وذهبوا به إلى رسول الله ﷺ. ومعهم المرأة.

وسمع النبي منهم: المرأة تقول: هو الذي فعل بي. وهو يقول: أنا الذي أغيثك.

فقال عليه السلام: «**اذهبوا به فارجموه**».

فقال الرجل الذي فعل بها ـ وكان قد سبقهم إلى مجلس رسول الله ﷺ: لا ترجموه. وارجموني. فأنا الذي فعلت بها الفعل!

فأخلى الرسول ﷺ سبيل الرجل الأول. ولم يرجم الثاني الذي اعترف. وقال للمرأة: «**أما أنت فقد غفر لك**». فقال عمر رضي الله عنه: ارجم الذي اعترف بالزنا. فأبى رسول الله ﷺ وقال: «**إنه قد تاب إلى الله**»[1].

ماذا في هذه الواقعة من معان؟

تمهيد

هكذا الإنسان.. كما يقرر البصراء بطبيعة الإنسان: يتردد كثيرا.. فلا يقتحم المجهول.. خاف من الوجود.. فعبد الشمس.. وجاء القرآن الكريم ففتح بصره وبصيرته على حقيقة هذا الكون. وكيف كان مسخرا له.. وهو طريقه إلى معرفة ربه.. وخشيته وحده.. فلما تفتحت منه البصيرة عرف ربه.. فعبده.

من أجل ذلك كان العلماء أخشى الناس لله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2].

---

(١) رواه النسائي: وفي إعلام الموقعين جـ٣/ ٢٠: ٢١ تعقيب: وليس فيه بحمد الله إشكال.

(٢) فاطر : ٢٨.

وبنفس القوة نقول: إذا كان العلم بجلال الله تعالى سبيلا إلى عبادته.. فإن الجهل بكمالاته سبحانه وتعالى هو سبب المعصية.. ولذلك: كان الملائكة.. كما كان الأنبياء لا يعصون.. لأنهم يعرفون.. أما العاصى: فإنه جاهل يقتحم مواطن الخطر وهو لا يدرى.. أو يدرى.. لكن الشهوة تنسج أمام عينيه غطاء من الغفلة فلا يرى إلا موقع قدمه.. فيخوض فى المعاصى.. وكيف لا يخوض فيها.. وهو من جهله لا يخاف.. ولو خاف ربه لاستحيا أن يعصيه.. بل لاستحيا أن يخلع ملابسه.. لأن الله يراه.. وما آذى جاره.. لأن الله يعلمه.

وهذا رجل نزغه من الشيطان نزغ.. فسول له اغتصاب امرأة مسلمة.. ومتى؟ عندما خرجت من بيتها طاهرة.. راغبة إلى ربها. تريد أن تصلى الفجر.. وبدل أن يعينها الرجل على أمر الله تعالى إذا به يحطم وجودها. ومن هنا يبدو حجم الجريمة ضخما..

المجتمع يؤدى دوره:

ولقد قام المجتمع بواجبه. فألقى القبض على الجانى. فساعد السلطة الشرعية لتنفذ حكم الله فيه.. وكانت المفاجأة أن الجانى الحقيقى قد سبقهم إلى ساحة القصاص.. ثم اعترف بجريمته.

وقد كان هناك اتجاهان.. ما يزالان موجودين على طريق الدعوة حتى اليوم: ولقد مثل عمر رضى الله عنه وجهة النظر القائلة بضرورة تطبيق النص بلا رحمة على المعترف.

أما الرسول ﷺ فقد حكم بما يلى:

أما بالنسبة للمرأة.. فلتعد إلى بيتها مغفورا لها. فلا ذنب لها فيما حدث. ولا طابت به نفسا. ثم لم يرجم الزانى الذى اعترف صراحة.. لماذا؟

ليس ذلك تهوينا من شأن الجريمة.. فالجريمة.. هى الجريمة والإسلام لا يفرق بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية: فشرب الخمر.. وإن أضر بصاحبه.. كالزنا الذى يتخطى ضرره إلى بنية المجتمع.. بخلاف فلسفة الغرب القائمة على التفريق بين السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى.. فتخفف القيود على ما كان

فرديا شخصيا.. بخلاف السلوك الاجتماعى والذى تكثر عليه القيود..

وقد ارتكب العاصى هنا جريمة لها آثارها الاجتماعية المدمرة.. ولكن: شتان بين من نام قلبه على هواه.. ومن رحل به الشوق إلى مولاه!

لقد بدا أمامه الذنب كالجبل.. ثم جاء باختياره إلى رسول الله ﷺ.. وما معنى أنه جاء إليه؟

لو كانت العقوبة المتوقعة فصله من عمله.. أو نقله من بلده.. ولو كانت العقوبة غرامة مالية.. أو حكما بالسجن..

لو كان الأمر كذلك لقلنا: إن مجيء الرجل لا يمثل توبة نصوحا.. لأن العقوبة محتملة!

أما أن يجيء وهو على يقين جازم بأنه سيقتل قصاصا.. فقد أكد بذلك صدق نيته فى التوبة التى يغسل بها ذلك العار.. يغسله بالدم.. لا بغرامة يقدر عليها.. فلما أيقن ﷺ بذلك.. حكم بالعفو.. بعدما أثبتت التجربة أن فى كيان ذلك العاصى ديدبانا يقظا.. غفل يوما.. ثم صحا من غفلته.. على معصيته ففر إلى الله يطلب الخلاص.

من أجل ذلك يؤكد ﷺ توبته بحرفى التوكيد والتحقيق معا: «**إنه قد تاب..**».

ويالها من نفس ترتد إليها الحياة من جديد.. ولسوف ترصد هذه الحياة لدين الله.. ولسوف تبقى منارا على طريق الخطائين.. الذين يقررون العودة على هداها.. وذلك هو الفوز العظيم.

بكاءون.. وشهداء:

عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت فى جوف الليل من خشية الله.. وعين باتت تحرس فى سبيل الله**».

ولقد انتبه الحسن البصرى ليلة فبكى.. فضج أهل الدار بالبكاء. فسألوه عن حاله فقال: ذكرت ذنبا لى فبكيت!!

وقد كانت هناك نماذج حية على طريق العودة إلى الله تعالى.. غسلت بدموع الندم آثار الماضى.. فكانت على الطريق أعلام هدى:

وقد تحدثت الآيات الكريمة عن طراز من هؤلاء كانوا من العبادة فى قمتها العليا.. ومع ذلك فقد هضموا أنفسهم.. فطال بكاؤهم. واشتد وجلهم من الآخرة.. بينما المترفون ساهون لاهون:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[1].

يقول ابن الرومى فى هؤلاء الرواد:

تتجافى جنوبهم ـ عن وطء المضاجع

كلهم بين: خائف ـ مستجير وطامع

تركوا لذة الكرى للعيون الهواجع

ورعوا أنجم الدجى.. طالعا بعد طالع

لو تراهم إذا همو: خطروا بالأصابع

وإذا هم تأوهوا عند مر القوارع

وإذا باشروا الثرى بالخدود الضوارع

واستهلت عيونهم.. فائضات المدامع

ودعوا يامليكنا ياجميل الصنائع

اعف عنا ذنوبنا للعيون الدوامع

أنت إن لم يكن لنا شافع ـ خير شافع

وأجيبوا إجابة لم تقع فى المسامع

ليس ما تسمعونه

أوليائى.. بضائع

وابذلوا لى نفوسكم إنها فى ودائعى

---

(١) المؤمنون: ٥٧ـ٦١.

حسب[1] رجل عمره.. فإذا هو. ستون عاما. وحسب أيامه فإذا هي. واحد وعشرون وتسعمائة يوم.. فصاح: ياويلاه... إذا كان في كل يوم ذنب.. فكيف ألقىَ الله بهذا العدد منها؟

فخر مغشيا عليه. فلما أفاق قال: فكيف من له كل يوم عشرة آلاف ذنب فخر مغشيا عليه. فمات.

وحتى في لحظات الانتصار الباهر.. يبقى انفعال الخوف قويا يحرس النفس حتى لا تفسد بالغرور طعم الانتصار:

لما كان يوم فتح قبرص. كان أبو الدرداء رضي الله عنه ممن اشترك في هذا الفتح فرآه بعض المسلمين يبكي فقالوا له: .. ما بك يا أبا الدرداء؟!! أتبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله. وأذل الشرك وأهله. فقال: ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره!.. بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك. إذْ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى!!

وهكذا يستشعر أبو الدرداء الخوف من العاقبة.. ولا يلهيه الانتصار الساحق عن استبطان العبرة وفهم الدرس.

بكاء المتقين:

كتب أبو الوليد الدمشقي إلى ذي النون المصري يسأله عن حاله. فكتب إليه ذو النون:

(كتبت إلى تسألني عن حالي. فما عسيت أخبرك به من حالي؟ وأنا بين خلال موجعات.

أبكاني منهن أربع: حب عيني للنظر. ولساني للفضول. وقلبي للرياسة. وإجابتي إبليس لعنه الله فيما يكرهه الله.

وأقلقني منها: عين لا تبكي من الذنوب. وقلب لا يخشع عند نزول العظة. وعقل وهن فهمه في محبته للدنيا. ومعرفة كلما قلبتها وجدتني بالله أجهل!

وأضناني منها: أني عدمت خير خصال الإيمان وهو: الحياء وعدمت خير زاد

(١) حسب يحسب من باب قل: من الإحصاء والعدد وحسب من باب تعب: وبني كنانة يكسرون المضارع والماضي

وهو: التقوى. وأفنيت أيامي بمحبتي للدنيا. وتضييعي قلبا لا أقتني مثله أبدا).

مستويات التائبين:

وفى ضوء هذه النماذج الفريدة. . وعلى حداء هذا الأنين الموجع. . يصدر عن قلب شاعر حساس ندرك أبعادا جديدة للتوبة. . فإذا كان هناك من يتوب. . من الذنب. . فهناك من يتوب من الغفلة. . وفوق هذين: ذلك الذى يتوب من حسناته!؟

أى يتوب من تذكرها معجبا بها. . فيعاقب نفسه على هذا الخاطر. . بهذا الحساب العسير!

الشعراء فى مواكب الإيمان:

ربما طاشت سهام الإرادة زمنا فتعثرت الخطى فطوحت بالشاعر أقداره بعيدا عن سواء الصراط. . ثم يصحو يوما. . فيفر إلى ربه تائبا. . داعيا. . فيمحو بالدعاء ماضيا كئيبا. . وإذا كان الوضوء سلاح المؤمن. . فإن الدعاء سبيله إلى مرضاة ربه. . . ذلك بأن الدعاء يعنى:

- كمال التوحيد والتنزيه. والإقرار بالذنب. والضراعة لقبول التوبة. . . وهو أمارة صحة التوبة. فكان بهذا المعنى:

أ - أعلى درجات الإقرار بالعبودية.

ب - وأسمى ما يكون التقديس لله تعالى.

ولابن الرومي هنا شعر. . بل ضراعة يدق بها أبواب الرحمة. . نذكرها. . فلعلها تكون ذكرى:

قال ابن الرومي إلى جانب ما ذكرناه آنفا.

بات يدعو الواحد الصمدا ... فى ظلام الليل منفردا

خادم لم تُبق خدمته ... منه لا روحا ولا جسدا

قد جفت عيناه غَمضهما ... والخلي القلب قد رقدا

فى حشاه من مخافته ... حرقات تلسع الكبدا

لو تراه وهو منتصب ... مشعر أجفانه السهدا

كلما مر الوعيد به	سح دمع العين فاطردا
ورهت أركانه جزعا	وارتقت أنفاسه صعدا
قائلا يامنتهى أملى	نجنى مما أخاف غدا
أنا عبد غرنى أملى	وكأن الموت قد وردا
وخطيئاتى التى سلفت	لست أحصى بعضها عددا
فلى الويل الطويل غدا	ليت عمرى قبلها نفِدا
ويح عينى.. ساء مانظرت	ويح قلبى ساء ما اعتقدا
ليت عينى قبلُ ما نظرت	كَحِلت أجفانها رمدا

أعمال القلوب أهم:

روى البخارى فى كتاب الجهاد:

«إذا مرض العبد أو سافر. كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم».

وفى كتاب الجهاد أيضا عنه ﷺ:

«إن بالمدينة لرجالا: ما سرتم مسيرا. ولا قطعتم واديا. إلا كانوا معكم حبسهم العذر».

ويقول تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[1].

مما لاحظه العلماء هنا: المريض.. والمسافر.. وأولو الضرر:

أ ـ يعتقدون حقيقة المأمور به.

ب ـ وعلمهم به كامل.

جـ ـ وإرادته ثابتة فى قلوبهم بحسب الإمكان.

---

(١) النساء: ٩٥.

د ـ ولكنهم لم يفعلوه لعجزهم.. فلهم ثواب الفاعل.

أما الناسى والمخطئ: فإنه لم يكن قد أتى بالعلم. والاعتقاد. والإرادة. فلا يثاب على هذه الأمور التى لم تكن له. بل يكون الذى حصل له ذلك أفضل منه بها.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فقد نفى المساواة بين الذى يعلم والذى لا يعلم مطلقا. لم يستثن المعذرة. كما استثنى فى تفضيل المجاهد على القاعد المعذور.

ومثل ذلك: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ...﴾[2]. ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ...﴾[3].

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا...﴾[4].

ولهذا قال ﷺ فى المتفق عليه:

«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران. وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

لم يجعل أجر العاجز عن إصابة الصواب مع اجتهاد كأجر القادر عليه. كما جعل للمريض والمسافر أجر الصحيح المقيم.. كما جعل المعذور القاعد عن الجهاد مثل المجاهد: فإن الأصل هو القلب.. والبدن تابع. فالمستويان فى عمل القلب.. إذا فعل كل منهما بقدر بدنه.. متماثلان.. بخلاف المتفاضلين فى عمل القلب: وهو: العلم والإرادة وما يتبع ذلك.. فإنهما لا يتماثلان وإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة.

من آثار الطاعة، وشؤم المعصية

فى كتاب «الإسلام» للإمام محمد عبده يقول: للإنسان كمال هو (استيفاء ما يمكن من فضائل).. عليه أن يسعى إليه

وهو معرض لنقص (الرذائل) يجب الترفع عنها.

الفضائل: سجايا من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها.

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) فاطر: ١٩: ٢٢.

(٣) هود: ٢٤.

(٤) الأنعام: ١٢٢.

أ ـ فالسخيان مثلا: لا يتنازعان فى التعامل.. فسجيتهما البذل فى الحق.

ب ـ.. والمنعُ إن اقتضى الحق المنع. فكلٌ يعرف حده.. ويقف عنده.. فلا موضوع بينهما للنزاع.

والأعِفّاء:

أ ـ لا يتزاحمون على مشتهى. فكلاهما متجاف عن الشهوة.

ب ـ وفى طبعهما الإيثار بالرغائب.. ففيم النزاع؟

وهكذا كلما شاعت الفضائل.. ورسخت قويت الرابطة بين المتصفين بها فهى مما يوحِّد الهيئة الاجتماعية: يعمل الفرد لنفسه.. ثم يعمل لمجتمعه. كأعضاء الجسم. كل له وظيفة خاصة.. لكن المجموع يعمل للكل.. فالفضيلة تحفظ توازن المجتمع كما تحفظ الجاذبية الكواكب: كل كوكب ثابت.. بنسبة معلومة..

وهكذا يعمل كل فرد فلا ينحرف عن غاية المجتمع: إنها جداول: تُمد البحر.. لتستمد منه.

ويترتب على ذلك: مساعدة كل عامل ليبلغ شأوه.. وإلا فلو لم تساعده لأبطلت آلةً من آلات عملك مهما كان العمل صغيرا.

وتصور: هل يوجد تنافر بين: عاقلين. عفيفين.. كريمين.. شجاعين.. صابرين؟

أما بالنسبة للرذائل: فمن ورائها التمزق:

أ ـ يتجاوز كل واحد حده.. وهذا ظلم.

ب ـ ثم يسقط عن أداء الواجب فى حق أخيه المسلم... والنفس تكره من يظلمها.. ولا يسعفها ويخذلها!

وتصور: شرهين.. ظالمين.. خائنين لجوجين.. سيكون التفرق طبعا وهْنا ينقض بناء الأمة.. فتجيء أخرى لتحكمها بالقوة لأن الرذائل لم تمكنها من الاجتماع فلابد من قوة تفرض عليها ذلك لتعيش.

ويبدأ مركب النقص: كل مستورد.. محبب. وكل وطني.. حقير!! كالكلب يبدأ بعض صاحبه. والمجنون يفتك أولا بمربيه.

وهكذا يسلبهم الله تعالى تاج عزهم ليلقيه على هامات قوم آخرين.

وبعد: فنختم هذه الخواطر بهذه النصائح للمرحوم الدكتور مصطفى السباعى[1]:

خداع الشيطان باسم الطاعة.

إنى لا أخشى على نفسى أن يغرينى الشيطان بالمعصية مكاشفة، ولكنى أخشى أن يأتينى بها ملفقة بثوب من الطاعة.

يغريك الشيطان بالمرأة عن طريق الرحمة بها، ويغريك بالدنيا عن طريق الحيطة من تقلباتها، ويغريك بمصاحبة الأشرار عن طريق الأمل فى هدايتهم، ويغريك بالنفاق الظالمين عن طريق الرغبة فى توجيههم، ويغريك بالتشهير بخصومك عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويغريك بتصديع وحدة الجماعة عن طريق الجهر بالحق، ويغريك بترك إصلاح الناس عن طريق الاشتغال بإصلاح نفسك، ويغريك بترك العمل عن طريق القضاء والقدر، ويغريك بترك العلم عن طريق الانشغال بالعبادة، ويغريك بترك الجهاد عن طريق حاجة الناس إليك، ويغريك بترك السنة عن طريق اتباع الصالحين، ويغريك بالاستبداد عن طريق المسئولية أمام الله والتاريخ، ويغريك بالظلم عن طريق الرحمة بالمظلومين.. وهكذا تستمر حملة التمويه..

فليحذر المسلمون عدوهم الحقيقى: الشيطان الرجيم من الإنس.. والجن.. يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.

إساءة الحمقى إلى الدين.

بعض الغيورين على الدين يسيئون إليه بحمقهم وغرورهم أكثر مما يسىء إليه أعداؤه بخبثهم ومكرهم.

لاتدع للشيطان فرصة.

لا تعط الشيطان فرصة التردد عليك، بل احزم أمرك معه. وأفهمه أنك لا تحب الخائنين.

إذا خوفك الشيطان:

إذا خوفك الشيطان من الفقر، فرده بالرزق المكتوب، ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾.

وإذا خوفك من الموت والقتل فرده بالأجل المكتوب ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

إذا أيأسك الشيطان.

إذا أيأسك الشيطان من الجنة فتذكر مغفرة الله. وإذا أيأسك من النجاة بتقصيرك فتذكر فضل الله.

وإذا أيأسك من الشفاء من مرضك فتذكر رحمة الله.

وإذا أيأسك من كشف محنتك فتذكر وعد الله[1].

*****

(١) هكذا علمتنى الحياة. الدكتور مصطفى السباعى.

الفصل الثانى

من ملامح المنهج النبوى في معاملة الخطائين

تمهيد:

كل مولود يولد على الفطرة:

١ ـ فيه ميل إلى الأفضل. . . يحدوه إلى الكمال. . فيزين له طلبه.

٢ ـ وفيه نفور من الهوان. . يسوقه. . فيزعجه ليهرب منه.

٣ ـ ولكن. أمامه عقبات ومضلات على الطريق. . فهو محتاج إلى من يبصره بها.

٤ ـ إذن فلابد من النصيحة. . من النقد المخلص:

سوقا للناقص إلى الكمال. . ودفعا للكامل إلى طلب الغاية مما يليق به. .

وهكذا يقرر البصراء بطبائع النفوس:

إنها لرحلة شاقة مضنية: فمن رام الكمال. . لا تقف به أشواقه عند حد. . فهو يرمى ببصره إلى بعيد. . فيمضى. . ثم يتلفت وراءه. . فيلمح مساقط الهوان. . فيفزع ناجيا. . وقد تخدعه المظاهر على جانبى الطريق المستقيم. . فيسقط: كطائر يرى الحب المنثور. . ولا يرى الشبكة الرابضة.

آفة النقد:

وآفة النقد أن الإنسان يرى لغيره. . أكثر مما يرى لنفسه. . فيتولد من ذلك شعور الغرور يرى الناقد نفسه أفضل من المنقود. وهنا مكمن الخطر. الذى يقى الإسلام الناقد والمنقود من عقباه:

فلا ينبغى التركيز على الفضائل وحدها. . أو الرذائل دون سواها. . وإنما يتوخى الحق حيثما كان حتى تصير النصيحة مؤثرة للاثنين معا. . حيث تتسع بها

دائرة العلم.. فتتجلى الحقائق.. بقدر ما تكون عتابا للمخطئ يسدد خطاه على الطريق. ويصبح الأمر على ما قيل: مرحبا بالنقد: ينبه الغافل. ويعلم الجاهل، ويهدى الضال. وينهض من زل.. ومن أصم نفسه عن النقد.. فإلى شر مما توقاه ورط نفسه.

نقطة البداية:

ولنبدأ الرحلة من أولها.. فى محاولة لتحديد مسئولية المذنب عما كسبت يداه.. ثم بيان الأسلوب الأمثل فى النقد والتقويم:

حكى السيوطى عن السبكى: الذى يقع فى النفس من قصد المعصية على خمس مراتب:

الأولى: الهاجس. وهو ما يلقى فيها.

الثانية: جريانه فيها.. وهو الخاطر.

الثالثة: حديث النفس وهو: ما يقع فيها من التردد: هل يفعل أولا؟

الرابعة: الهم وهو: ترجيح قصد الفعل.

الخامسة: العزم وهو: قوة ذلك القصد. والجزم به.

ثم يقول: فالهاجس: لا يؤخذ به إجماعا. لأنه ليس من فعله. وإنما هو شىء ورد عليه ولا قدرة له ولا صنع. والخاطر، وحديث النفس مرفوعان بنص الحديث (مالم تعمل أو تكلم).

وهكذا يتجاوب الإسلام مع فطرة الإنسان. فيعفيه من مسئولية ما لم يكن سببا فيه من الخواطر.

ولنفترض أنك اتخذت الآن قرار العزم على المعصية.. فماذا يحدث؟: يقول العلماء:

١ ـ إنك إذا لم تقض منها وطرا.. تحسرت.

٢ ـ وإن قضيت.. نازعتك نفسك إلى مثلها.

٣ ـ وما تعجز عنه أكثر مما تقدر عليه..

أ ـ فتحس بالعجز.

ب ـ وبالحسرة.

جـ ـ وتلك نار الدنيا قبل نار الآخرة. ذلك بأن السيئة الأولى.. يمكن تلافيها.. أما السيئة الأخيرة.. فمن الصعب تلافيها.. إذ لا نهاية للشوط بعد أن أسلمت قيادك للشيطان. أما الطاعة: فإنها تقوى داعى الإيمان.. والحب.. فتسهل عملية الاستجابة لأمر الله تعالى.. لأنه قبل أن ينتهى تأثير الحسنة السابقة.. تتبعها اللاحقة.. وهكذا.. تقوى دواعى الطاعة.. بقدر ما تتراجع الصوارف.

الأمل هو الخط البارز فى المنهج الإسلامى.

ماهو موقفنا إزاء العصاة.. حتى يعود العبد الآبق إلى ربه؟ وبخاصة مع من بلغ فى شوط العصيان إلى منتهاه؟؟

والخط البارز هنا أن يظل خيط الأمل موصولا.. فلا نقطعه باليأس.

ومن هدى النبوة هنا حديثان.. ينتصبان على الطريق. دليلا للحائرين.. والمتشددين: روى أنس رضى الله عنه:

أ ـ (كان فتى من الأنصار يصلى مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئا من الفواحش إلا ارتكبه.

فوصف للنبى ﷺ حاله. فقال: «إن صلاته ستنهاه».

فلم يلبث أن تاب. وحسن حاله).

كان هناك تناقض واضح فى موقف الفتى العاصى:

إذ كيف يجتمع فى قلب مؤمن إصرار على المعصية.. فى نفس الوقت الذى يسعد فيه بصحبة رسول الله؟

وكيف يصف قدميه مع الصافين خلف رسول الله.. ثم لا تنحسر من قلبه دوافع الانحراف.. وهو الأمر الذى فزع رفقة الخير.. فلجأوا إلى رسول الله

يرفعون إليه شكواهم من أخيهم.. ولا شك أن دافع الحرص على أخيهم كان وراء هذا الحماس.. الذى استهدف النجاة به من عواقب المعصية على ما يقول العارفون:

من آثار الذنب:

قلة التوفيق. وفساد الرأى. وخفاء الحق. وفساد القلب. وخمود الذكر. وإضاعة الوقت. ونفرة الخلق. والوحشة بين العبد وربه. ومنع إجابة الدعاء. ومحق البركة: فى الرزق. والعمر. وحرمان العلم. ولباس الذل. وإهانة العدو. وضيق الصدر. والابتلاء بقرناء السوء. وطول الهم والغم. وضنك المعيشة. وكسوف البال.

كل ذلك يتولد عن المعصية. والغفلة عن ذكر الله. كما يتولد الزرع عن الماء. والإحراق عن النار. وأضداد هذه تتولد عن الطاعة.

وقد أحس زملاء الفتى بهذا الخطر يحدق به.. فما عزلوه ولا حطموه باللوم. وإنما كانت شكاتهم إلى رسول الله ﷺ ليعينهم.. ويعينه على أمر الله تعالى.

إن رفاق السلاح لا يتلاعنون. وإنما يذهبون إلى الرائد الذى لا يكذب أهله. فى محاولة لعلاج الموقف على نحو يزيد به الأطهار واحدا.. هو ذلك الفتى المغلوب على أمره.

مغزى جواب الرسول:

ومعنى جوابه ﷺ: أن ذلك الفتى المذنب يخوض معركة ضارية ضد الشيطان وجنده.. وهى معركة تبدو سجالا:

فعندما يسمع الأذان يخف ليصف قدميه خلفه ﷺ.. منتصرا بذلك فى جولة على الشيطان.

فإذا خرج من المسجد. طاردته الوساوس فغلبه الحنين إلى ساحة اللهو.. وانفلت عياره.. ويفرض علينا الإسلام أن نقف إلى جانبه.. ضد الشيطان.. لا أن نعين عليه شيطانه.. إن الملاح التائه فى البحر.. يحتاج إلى من يصحح له

وجهته.. حتى يصل إلى الشاطئ بسلام.. وقد يضطرب المجداف فى يده.. لكنه واصل بإذن الله تعالى.. وكذلك العاصى. الغارق فى مستنقع الذنوب:

إن مهمتنا أن ننقذه.. لا باللوم وحده.. وإنما بتصحيح مساره، وقد يتأخر الوصول قليلا.. لكن الغريب سوف يعود إلى وطنه يوما.

فإذا كان المذنب فتى. كصاحبنا الفتى الأنصارى.. فيه عرامة الشهوة.. كان أحوج إلى الرفق سبيلا إلى التوبة النصوح:

إنه يعيش معركة الخلاص.. وسوف يسفر الصبح عن النصر المبين. فلنذكره.. لننشئ فيه الرغبة التى تحدوه إلى الكمال.. وسوف تتراجع النفس الأمارة.. ثم تتقدم النفس اللوامة لتباشر مهمتها فى الترشيد والتوجيه. وربما يصل بالحكمة إلى النفس المطمئنة.. وهى غاية المراد.

فلننشط الضمير الهامد:

إن المذنب يعيش لحظة المعصية بأعضائه المتشبثة بالخمر.. أو مطارحة الهوى.. أو أحاديث المجون.. بينما ضميره هناك غافل.. مستكين.

فما العمل.. والجسم كله غارق فى المتعة الحرام.. والضمير.. ذلك الحارس.. قد غلبه النعاس.. فسقط سلاحه؟

إن واجبنا أن نوقظ الحارس.. ليصحو. ثم يباشر سلطة الرقابة والمتابعة.. نوقظه بالكلمة الهادية.. أو السكوت المترقب..

حتى إذا صحا النائم يوما.. انتهت مهمتنا.. ومضينا.. بعد أن تركنا ضمير العاصى يصفى حسابه معه.. فى محاكمة ذاتية لا يشعر معها بضغط خارجى منا.. قد يجىء بنتائج عكسية. وقد أشار النبى ﷺ إلى أن صلاة الفتى سوف تنهاه يوما.. سوف يستيقظ الديدبان فى لحظة من زمان.. عن طريق الصلاة.. ذلك الواعظ الذى يهز الضمير.. إن لم يكن اليوم فغدا.. ثم ينتهى الموقف بالتوبة النصوح.. وهذا هو الذى حدث بالفعل.. فقد تاب.. وليس هذا فقط.. وإنما حسنت توبته.. أى أنه عاد إلى الله عودة لن يعود منها إلى سالف عهده.

من موجبات الترفق بالعاصى:

ويحملنا على الشفقة به أن له عالما داخليا لا ندركه.. وإذن فلندخله فى حسابنا:

فقد ترى العاصى مسرفا على نفسه.. فتعنفه.. لكنك لم تستكشف من عالمه الباطن.. محاولات الوصول إلى الطهر مثلك.. فلنحاول أن نفترضها جدلا.. لنضع حدا لانفعالاتنا:

قال والد لولده وهو يعظه: يابنى: افعل الخير.. فإن لم تستطعه فانوه.

وإذن.. فقد يكون لدى العاصى نية عمل الخير لكن الظروف لا تطاوعه.. فهو على أى حال لم يستمرئ الإثم.. ولم يركن إليه.. ثم.. أليس من الجائز أن عاصيا غارقا فى حمأة الاثم.. وفى أعماقه صراخ يلعن الإثم والآثمين؟.

فلم لا نستجيب لهذا النداء.. بزحزحته بالحكمة من نار الإثم.. ليدخل جنة الطاعة؟

ويعجبنى تلك الضراعة من رجل غلبت عليه محنته فقال: اللهم إنى عصيتك.. ولكنى أحب من يطيعك!! إن فى داخله بقايا قلب ما زال يتعشق الطهر.. فهو محسوب على المطيعين.. فليفتحوا أذرعهم له.. ليدخل معهم فى حصن الأمان.

افتحوا الأبواب للهواء الطلق:

ب ـ (روى أبو فروة أنه أتى النبى ﷺ فقال: أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها. ولم يترك حاجة ولا داجة. فهل له من توبة؟

فقال: **«فافعل الخيرات. واترك السيئات. فيجعلها الله لك خيرات كلها»**

قال: وغدراتى وفجراتى؟؟

قال: **«نعم»**

فما زال يكبر حتى توارى).

لو كان ذلك الرجل عربيدا يسكن الحانة مع خلان السوء.. لكان للداعية معه شأن آخر.. أما وقد حملته قدماه إلى الرسول ﷺ.. فقد دل بالقدوم على

جديته فى طلب الخلاص.. الذى يصبح اليوم أعز أمانيه.

إنها نفس تحس بآثار هموم ثقال.. تئود رأسا ظالما عصى الله ورسوله.. وهاهى ذى ترجو الدخول.. والنفس الإنسانية تقع أحيانا بين شقى الرحى: بين الشبهات.. والشهوات..

وأصعب الاثنين كما قيل: الشبهات.. لأنها قد تصل بصاحبها إلى الكفر.. ولكنها فى نفس الوقت بطيئة العدوى.

أما الشهوات: فإنها أسرع انتشاراً.. فهى فى حاجة إلى حركة تطويق.. قبل أن يتسع مداها.. فيكثر ضحاياها..

والرجل العاصى هنا يهب فى حركة مباركة يرد على الشيطان بها جواره!.. ثم هو يلتمس جوار أهل الطاعة.. فمرحبا به.. يلقى أهلا.. وينزل سهلا..

وهذا سر جوابه ﷺ.. الذى أدرك مغزى قدوم ذلك الرجل معترفا.. إنه لم ينقل خطاه إليه فقط.. وفى حركة آلية.. ولكن مجيئه يعنى أنه هزم الشيطان فى الجولة الأولى.. فتخلص من أسره.. وذلك انتصار على الشيطان المريد له قيمته.. ومن ثم يقدره الرسول قدره:

لقد حبس ملك ولده فى قصر.. وحبس معه وعاظا ومرشدين. وجعل معه زادا حلالا. وظن الملك أن مهمته قد انتهت.. ولم يعمل حسابا للشيطان. الذى دخل القصر.. فأفسد عمل الوعاظ جميعا.. بالمرأة الجميلة التى وضع بها النار.. إلى جانب الوقود.. ففشلت خطة التربية!

سلامة الأساس:

لقد اطمأن الرسول المربى أولا على سلامة الأساس وهو الإسلام حين قال: أسلمت؟ فلما جاء الجواب بالإيجاب.. بدأت الخطوة التالية.. بتوجيهه إلى فعل الخيرات بديلا عن فعل السيئات..

إن القاعدة السليمة قابلة للبذور الجديدة.. من الأعمال الصالحات المصلحات.. والتى سوف تطرد العملة الرديئة.. وتنفرد بالساحة..

ولقد بقيت فى نفس الرجل بقية من الشك فى قبول توبته حين تصور الماضى الكئيب بما فيه من غدرات وفجرات.. فلما تساءل عن مسئوليته عنها.. أخبره ﷺ بأنها بالتوبة صارت فى خبر كان.. ولقد دل الرجل على إخلاصه حين استقبل هذه السماحة بالتهليل والتكبير حتى توارى..

دليل التوبة النصوح:

لقد كان الرجل صريحا صراحة أهلته للتوبة النصوح:

فقد اعترف بذنوبه.. وعلانية. وبمنتهى الصراحة: ما ترك جليلا.. ولا قليلا.. من الموبقات إلا ارتكبه!

ومع أن هذا الإعلان سيضره اجتماعيا.. لكنه تجاهل ذلك فى سبيل أن يستأنف حياته شريفا مع الشرفاء.. فلنستقبله أخا كريما.. يسخر من اليوم حيلته وذكاءه التى صرفها لخدمة الشر.. يسخرها اليوم لخدمة الدعوة ونصرة قضاياها.

سر التوجيه النبوى:

إذا تصورنا بيتا له أبواب[1]... يطل بعضها على غابة فيها وحوش وثعابين.. ويطل بعضها على بساتين ناضرة مزهرة: فما هو موقفنا؟ من الحكمة أن نغلق الأولى كلها.. أولا.. وهى المحرمات.. ثم نفتح بابا.. ولو كان واحدا من الطاعات.. يطل منه العاصى على الهواء الطلق.. والخضرة الناضرة.. فى محاولة نغسل بها الأدران.. وننظف النفس تنظيفا يكتسح جرثومة الشر.. فلا تعود.

وهذا ما فعله ﷺ.. عندما أمر الرجل بفعل الطاعات.. وترك السيئات.. لتنحسر مع السيئات مشاعر الهوان والتربص والانتقام.. وتحل محلها دوافع كريمة رقيقة من جنس الطاعة يستحيل بها بحرا طهورا..

وأزعم أن مثل هذا الرجل الذى حط عنه الرسول هذه الهموم الكبار.. سوف يستأنف الحياة.. بضمير ما يزال يذكر الجميل.. بالثناء والتبجيل.. والخلق النبيل.

---

(١) الفكرة للشيخ على الطنطاوى.

درس للمتحمسين:

وفى موقفه ﷺ درس للمخلصين من المتحمسين:

إذا واجهت العصاة كعاصفة رملية ساخنة.. تحول المدعوون إلى حوائط.. تصدك.. وتغلبك!

ابنوا للخطائين قصورا من الخير.. قبل أن تهدموا عليهم أكواخ الشر.. فإذا بنيتم لهم قصور الطاعة.. سوف يهدمون بأيديهم أكواخ الشر.. بما فيها من وحشة.. وظلمة وضياع!

إن ماء البحر.. وإن كان ملحا أجاجا.. مر المذاق.. فسوف يصاعد منه بخار.. يشكل سحبا.. يزجيها الحق تعالى لتتساقط ماء عذبا.. يحيى بها الله تعالى موات القلوب.. وفى اللحظة التى ترى فيها المذنب فى قمة الاستمتاع بجريمته.. لا تكن عنيفا: لا تضع الماء على النار.. حتى لا يفسد النار والماء.. معا.. ولكن: ضع الماء فى إناء عازل.. فتتحقق به الفائدة.. وسوف تخمد النار.. ثم يكون الانسجام الكامل بين الإنسان ومجتمعه.. وحقائق دينه.. افسحوا الطريق.. ليعود العبد إلى ربه مع أخ له من قبل:

جعل الله مهربا.. وامتطى الليل مركبا
خادم كان مرة مسرفا.. ثم أعتبا
راكعا ساجدا له.. ليس يألو تقربا
فرض الخوف دمعه.. لثرى الأرض مشربا
لو تراه إذا دعا: يامليكا محجبا
اعف عنى فقد ركبت من الأمر معطبا
كسبتنى جرائمى مكسبا.. ساء مكسبا

*****

الدعوة بين منهجين

قال ﷺ:

«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا. فسأل عن أعلم أهل الأرض. فدل علي راهب. فأتاه. فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا. فهل له من توبة؟ فقال:لا. فقتله. وأكمل به المائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم فقال: أنه قد قتل مائة. فهل له من توبة؟ قال: نعم.. من يحول بينك وبين التوبة؟!

ائت أرض كذا وكذا. فإن بها ناسا يعبدون الله. فاعبد الله. ولا ترجع إلى أرضك. فإنها أرض سوء.

فانطلق.. حتى إذا انتصف الطريق. أتاه الموت. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة. وملائكة العذاب.

فقالت ملائكة الرحمة: جاءنا تائبا. مقبلا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط.

فأتاهم ملك فى صورة آدمى. فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا مابين الأرضين: أيهما كان أقرب. فهى له.فقاسوه. فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد. فقبضته بها ملائكة الرحمة».

تمهيد:

جاءنى مدرس التربية الإسلامية يشتى شكواه:

لقد ارتكب فى صباه خطأ فاحشا. لا يجرؤ على الإفصاح عنه. وما يزال شبح هذا الجرم يطارده. حتى إنه ليشوش على عبادته. إلى حد أنه يكون فى المسجد فيرى صبيا يقرأ القرآن فتصرخ فيه نفسه غاضبة: إن هذا الطفل أشرف منك.. فها هو ذا يتلو كتاب الله تعالى.. فى نفس السن التى مارست فيها

خطيئتك!.. ثم يتزايد الإحساس بحجم الخطيئة حتى لأكاد لأقتل نفسى.. لكن بقية من الإيمان تمسك بى.. قبل أن أسقط فى القاع.. ولقد جئتك لتحمل معى من الهموم الثقال.. مالم أستطع تحمله وحدى.

وقلت للفتى الحائر:

أولا: أنت مؤمن.. بل أنت من المتقين.. فمن علامات إيمان المؤمن: أن تسره حسنته.. وتسوؤه سيئته.. وها أنت ذا تأتى مفزعا من مرارة معصية مضى عليها عشرات السنين.. ومع ذلك فما زالت مرارتها فى حلقك.. ولم تنسها يوما. أما إنك من المتقين.. فإن من صفاتهم مما ذكره تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[1].

وواضح من موقفك الآن أنك استغفرت من ذنبك.. وأقلعت عنه.. ولم تصر عليه.. فكنت واحدا ممن استحقوا الجائزة المذكورة فى الآية التالية:

﴿ **أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[2].

إذن.. فلا مسوغ لليأس.. فإذا كان ذنبك عظيما.. فعفو الله تعالى أعظم.

لقد ذهل الفتى عن هذه الحقيقة فضاعف من عذابه.. ومن أجل ذلك تهزه الآية الكريمة.. كما تهز أمثاله.. فى كل زمان ومكان.. بهذا الاستفهام الإنكارى.. المتحدى: ﴿**ومن يغفر الذنوب إلا الله**﴾.

ويبدو خطؤك القديم يتيمة الدهر.. فى صحيفة أعمالك.. التى تتراءى بيضاء من غير سوء.. إلا من هذه المعصية الغابرة.. ويعنى هذا أنك مصر على المضى فى رحلة التوبة.. عازما على عدم العودة وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة:

---

(١) آل عمران: ١٣٥، ١٣٦.

(٢) آل عمران: ١٣٧.

﴿ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون﴾.

لقد وصلت إلى منتهى الرحلة.. وعليك أن تزايل مشاعر الكآبة البادية عليك الآن.. وطالع فى الآية الكريمة عاقبتك الحسنى.. التى أشارت إليها الآية الكريمة.

ثم إنك يابنى صاحب نفس لوامة: أُلجئت إلى الإثم إلجاء.. ثم صحا النائم يوما.. فحاسب نفسه حسابا عسيرا.. وما تزال المحكمة منعقدة حتى الآن.. وعلى تقادم العهد.. وتلك ظاهرة صحية:

وإذا كانت النفس المطمئنة بغية الطالبين. وأمل العابدين. فإن النفس اللوامة هى السائق اليقظ إلى مرتبة النفس المطمئنة.. لأنها تعنى صحوة ضمير.. فتح عينيه على بشاعة المعصية فأقام الدنيا فى كيانك ولم يقعدها.. وذلك هو شعاع الفجر.. الذى سوف يسفر عن الضياء.. من أجل ذلك يقسم الله تعالى بالنفس اللوامة لمنزلتها تلك:

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1].

وذلك تقدير عظيم للنفس الصحاحية الباكية على خطيئتها.. لتواصل السير إلى مرضاة الله تعالى:

فهل لك بعد هذا كله من عذر فى التشاؤم.. بينما التشخيص الدقيق يثبت براءتك من علتك.. فلم تمسك نفسك لتظل فى دائرة العصيان.. والموقف كله يهتف بالتفاؤل والبشر والأمل؟!

قال الفتى: إن ما فعلته فى صباى.. لم يذكر فى القرآن؟!.. ومن ثم فلا استحق قبول توبتى. لأن التوبة المذكورة فى القرآن إنما هى على ما صرح القرآن به من آثام.. وجريمتى ليست واحدة منها؟!!

قلت له: بل هى مذكورة فى القرآن الكريم. وفى الآية السابقة.. ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾.

---

(١) القيامة: ١، ٢.

فهى معصية فحشت.. تجاوزت الحد.. إلى الغير.. أو أن ضررها كان محصورا فيك أنت... ومهما كان الأمر.. فإن رحمة الله تعالى كانت عملية إنزال من الخلف طوقت الفاحشة والظلم بالتوبة فلم تبق لها على أثر!

وليس مطلوبا من القرآن الكريم أن يعدد ما يحدث الناس من خطايا.. وإنما هو يذكر اللفظ.. لينضوى تحته كل ما يتصل بمعناه.. وبذلك يواكب المعاصى بالعلاج..

قسوة المخلوق ورحمة الخالق:

قلت للفتى: ولماذا ترهق نفسك بمعصية تجاوز ربك عنها.. من حيث كانت فى صباك.. ولا تثريب عليك حينئذ؟

لقد كان من رحمة الله تعالى أن تقبل العمل الصالح من الصبى.. ثم عفا عنه إذا أخطأ..

وكان ذلك من مظاهر حكمته تعالى.. حتى يتعود الصبى على الطاعة التى إذا شب عليها.. لم تكن ثقيلة عليه عند البلوغ.. ثم أعفاه من العقاب على الخطأ.. فرارا به من ضغوط تترك آثارها على شخصيته مستقبلا.. تاركا سبحانه وتعالى الصبى إلى فترة البلوغ حيث تبدأ المساءلة.. ثم إلى التوجيهات الرشيدة. والتى ترغبه فى عمل الخير حيث كان.

إذن.. فلا خطأ هناك.. وإذا كان قد وقع وانتهى.. فالستر أفضل. انسجاما مع منهج القرآن الكريم الذى يتحاشى الجهر بالسوء.. حتى تظل البيئة نظيفة.. تراها البراعم البازغة كذلك.. فتنفتح على الحياة راضية آملة عاملة.

يقول سبحانه:

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا. إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾(١).

---

(١) النساء: ١٤٨، ١٤٩.

إنه تعالى يبغض الاستعلان بالخطيئة.. حفاظا على البيئة التى تترك انطباعاتها على نفس الإنسان. بقدر ما يحب إعلان الخير سوقا إليه وحضا عليه.

وقد أكدت السنة الشريفة ذلك المعنى: فقد كان ﷺ يرى الرجل يخطئ.. فلا يعنفه مواجهة.. ولكنه كان يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا..»

ولاحظ ما فى الصيغة من تعميمات.. لا تمكن أحدا من معرفة الجانى بعينه: فهو ﷺ لم يقل: ما بال فلان.. ولا ما بال آل فلان..

ولا ما بال قومى.. وإنما قال: ما بال أقوام.. فغاب العاصى فى دائرة واسعة.. وغاب معه شبح المعصية الكئيب.. وتوقفت الظنون عن التجسس.. والألسنة عن الشتم.. فبقيت البيئة طاهرة نظيفة.. تشجع بطهرها ونظافتها على فعل الخير.. فإذا حدث بعد ذلك معصية تكون هى الاستثناء المخالف لما ألف الناس من الخير.. وعندئذ تبدو نشازا.. غريبا.. سرعان ما يزول.

وأخيرا.. فحركتك أيها الفتى ظاهرة صحية.. لأنها تتم فى دائرة الإيمان.. وبوحى منه.. ولولا أن الإيمان فى قلبك صاح.. ما كنت هكذا قلقا.. مشتاقا إلى الخلاص.. وإن أفلح الشيطان فى التشويش عليك أحيانا..

وهكذا النفس الإنسانية دائما فى سرائها وضرائها.. كما يقول أحد الباحثين: [حزن هذه النفس حزن مضيء.. حافل بالرجاء. وهى فى ذروة الألم والمأساة لا تكف عن حسن الظن بالله تعالى. ولا يفارقها شعورها بالأمن. لأنها تشعر بأن الله معها دائما. وأكثر ما يحزنها: نقصها. وعيبها. لا نقص الآخرين وعيوبهم. ولكن نقصها لا يقعدها عن جهاد عيوبها.. فهى فى جهاد مستمر. وفى تسلق مستمر لشجرة خطاياها. لتخرج من مخروط الظل إلى النور المنتشر. أعلى الشجرة. لتأخذ منه الحياة.. لا من الطين الكثيف.. أسفل السلم. إنها فى صراع وجودي. وفى حرب تطهير باطنة. ولكنه صراع هادئ واثق. لا يبدد اطمئنانها. ولا يقتلع سكينتها. لأنها تشعر أنها تقاتل باطنها بقوة الله. لا بقوتها وحدها. والإحساس بالمعية مع الله لا يفارقها رغم هذا القتال الدائم.

ومعنى ذلك أن النفس المؤمنة تحاول أن تتجاوز لحظة الخطأ.. فى عملية

خروج من منطقة التشاؤم إلى دائرة الأمل الرحيب.. وأنها لواصلة بإذن الله تعالى.. ومُدْ ـ من الطرق.. لابد أن يلج الباب يوما.

المربى العظيم:

وفى هذا الحديث الذى نحن بصدد التعليق عليه: نرى الرسول العظيم لا يسوق المعانى إلى الناس عن طريق: افعل. ولا تفعل.. وما قد يترتب عليها من إحساس المخاطب بأن هناك جهة ما تفرض وصايتها عليه.. ولكنه يجيء بها ضمن قصة تعايش أبطالها.. فتنسجم معهم. أو تنفر منهم.. حتى إذا قررت التأسى بهم.. كان قرارك بمحض اختيارك.. حين تنشط القصة وعيك.. الذى تتجاوز به الحاضر القائم.. وبخطى ثابتة.. إلى مستقبل واعد كريم..

منشأ الانحراف:

ونتساءل أولا: ماهى الأسباب التى تحمل على الانحراف. إلى حد يقتل رجل واحد مائة رجل .. مع أنه لم يقتل فى غزواته ﷺ.. وعلى الجانبين.. إلا مائتان تقريبا؟!

ومن الذى مكن رجلا ليسرق الملايين.. وعلى المدى الطويل.. بلا رادع؟

ومن هذه الأسباب:

١ ـ رؤية المعصية من قبل العاصي.. لا رؤية من أجرم فى حقه وهو الله عز وجل..

٢ ـ وقد يخاف الإنسان أولا.. من ارتكاب الكبيرة.. لأن حجمها كبير.. لافت للنظر. ولأن عقابها أيضا كبير فهو ينجو بنفسه منه.. ثم يرتكب الصغيرة.. استهانة بها. ولكنها تسرقه.. لتتحول بالإصرار إلى كبيرة.

٣ ـ غفلة الأسرة. والمجتمع. والدولة. التى تحرض المجرم العتيد على الاستمرار فى مسلسل الدم.. بعد ما غاب الحارس الأمين.

حق التوبة:

ولكن حق التائب فى الرجوع إلى ربه ما زال محفوظا!

وقد تاب هذا القاتل فعلا.. وكانت توبته نصوحا.. ودليل صدقها: أنه أوقف مسلسل الجريمة.. لقد ألقى السلاح.. وبعد أن كان بالأمس يطلق الرصاص.. فإنه اليوم يبحث عن الخلاص.. وها هو ذا حائر يسأل العارفين عن الطبيب المداوى؟

ولنا أن نتصور رجلا عليلا يحس بخطورة علته.. إنه لا يبحث عن طبيب.. أى طبيب.. ولكنه يبحث كما نقول فى ريفنا: عن «حكيم» يخلصه من عذابه..

والرجل التائب هنا لا يسأل عن عالم.. مجرد عالم.. وإنما يسأل الناس عن أعلم العلماء.. لا فى قريته.. أو مدينته.. وإنما أعلم أهل الأرض جميعا..

وما ذلك إلا لعمق إحساسه بحجم جريمته.. التى صحا ضميره يوما.. فأدرك أبعادها الفاجعة.. المتمثلة فى أنهار من دماء الأبرياء سالت بيده.. ومائة أسرة يفجعها فى عائلها.. أو عزيزها.. أو وحيدها.. ثم.. أمن المجتمع الذى زلزل كيانه زمنا طويلا.. وأرقه ذلك.. فأفاق من غفلته.. وبدأ يتكلم بالألفاظ.. بعد ما كان يتكلم بالسيف!

المجتمع يكفر عن سيئاته:

وقد كفر المجتمع عن سيئاته.. حين دله على طريق الخلاص.. فى شخص هذا الراهب القادر فى ظنهم على وضع حد لعذابه. وتخليص المجتمع من أكبر مشكلاته.. ولقد حمل الرجل همومه إلى الراهب.. ومعها شجاعته الفريدة على الاعتراف بالخطأ الجسيم.. ولكن للأسف لم يجد على الجانب الآخر ما يعينه على تصحيح هذا الخطأ الجسيم.. فقتل الراهب الأول؟!

لقد سبح الغريق إلى الشاطئ بحثا عن قشة تحمله إليه. ولكن الراهب ضن عليه بهذه القشة.. وأغلق فى وجهه الطريق.. فقتله الرجل.. ولم يقتله هذه المرة ظلما وعدوانا.. كما كان يفعل من قبل ولكنه هدم الجدار الواقف.. الذى يسد أمامه طريق النجاة.. ولم يمد له حبل الأمل..

وهكذا تكون نظرة العقل القاصر: عقل مولع بالجزئية. وعاجز عن النظرة الكلية للأشياء. وهو عاطفى يحب الإثارة والانفعال. ويعجز عن الفعل.

وهو محكوم أيضا بموروث ثقافى. لا يستطيع الفكاك منه. فهو لا يفكر بطلاقة وحرية. لأنه محكوم بوحى مسبق. وهو يقوم على منهج التفكير الاستنتاجى. ويعجز عن التفكير الاستقرائى.

وهو معجب بالمنهج البيانى. وعاجز عن المنهج البرهانى. وهو يخلط بين الواقع المعاش. والمثال الخيالى. وصاحبه يحب الثأر. ويغرق فى الملذات].

بل إنه لم يفلح فى قراءة الواقع كما هو.. حتى يستقيم العلاج ويصح المريض: إن سفينة الرجل مقيدة بالحبال.. والشروع فى التوبة.. مجرد الشروع.. يفرض علينا أن نمد الأيدى لمساعدة السفينة على الإقلاع.. ولن تقلع السفينة إلا إذا تقطعت تلك الحبال..

وتلك مسئوليتنا: أن نمنع المغريات حتى لا يعود.. وأن نهيئ القدوة التى ترتاد له الصراط المستقيم.. أما هو فقد حقق الشرط المهم للإصلاح فاقلع عن الجريمة.. ونحن نعلم من حكم التوبة: أن الله تعالى يأذن بالتوبة للعبد. ثم يمكنه منها.. فإذا تاب.. تقبل الله تعالى عنه.. فسيئته.. سيئة بين حسنتين هما:

الإذن والقبول.. فكيف نضيق نحن ما وسعه الله تعالى؟!

وكما أنه لا يغلب عسر. يسرين.. فكذلك.. لا بقاء لسيئة بين حسنتين.. سئل أحد العارفين عن حاله فقال: حالى: سيئة بين حسنتين.

وكان يقصد قوله تعالى: ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾. فهو عبد الله.. وهذا شرف عظيم.. ثم هو واقع فى مساقط رحمته تعالى وغفرانه.. وهذا يكفى ليظل الأمل فى النجاة يداعبه.. فلا ييأس.

درس على يد أعرابى:

قال سفيان الثورى: سمعت أعرابيا بعرفة يقول: إلهى: من أولى بالزلل والتقصير منى.. وقد خلقتنى ضعيفا؟ ومن أولى بالعفو عنى منك.. وعلمك سابق فى.. وأمرك بى محيط؟ أطعتك بإذنك.. والمنة لك على. وعصيتك

بعلمك.. والحجة لك على. فأسألك بوجوب حجتك.. وانقطاع حجتى.. وبفقرى إليك.. وغناك عنى.. أن تغفر لى وترحمنى.. اللهم إنا أطعناك بنعمتك فى أحب الأشياء إليك: شهادة أن لا إله إلا الله.. ولم نعصك فى أبغض الأشياء إليك: الشرك.. فاغفر لما بينهما.

قضية بين منهجين:

عندما عرض القاتل قضيته على أهل الاختصاص ظهر لنا منهجان: الراهب الأول يمثل وجهة نظر فى الدعوة مخلصة.. لكنها منفعلة.. والانفعال اشتعال.. لا يدرس القضية بكل ملابساتها.. وإنما هو الحكم المتسرع العنيف.. يصدره داع ينشق من دوحة الحق فإذا هو: يتهالك نزولا.. ويذبل نحولا.. ثم يجف ويموت.. وقد قالوا: إن الراهب الأول كان عابدا.. فلم تكن له حكمة العالم الفاهم المتمرس بالتجربة.. فظلم نفسه.. قبل أن يظلم الحق.

أجل.. لم يفهم الواعظ الأول مراتب الإصلاح والتى هى:

أ ـ وقف الجريمة بالتصدى لها.

ب ـ منع العودة إلى مثلها بمنع المغريات الداعيات إليها.

جـ ـ الوقاية والتحصن. لإيجاد المناعة عن طريق القدوة الحسنة.

وكان عليه أن يدرك أن الرجل ما دام قد كف يده عن سفك دماء الأبرياء.. فقد غير اتجاهه.. وبدأ يخطو نحو التوبة.. بهذه الخطوة الأولى على طريق الإصلاح.. إن هذا العالم ليمثل الاتجاه النصى الواقف عند حدود الأحكام. دون النفاذ إلى جوهر هذه الأحكام ليتذوق روح الإسلام:

وصحيح أن التوبة لا تتم إلا بشروطها وهى:

أ ـ المعرفة.. وهى رؤية الذنب والاعتراف به.

ب ـ والوجدان وهو : الندم على فعله.

جـ ـ والنزوع وهو: الرغبة فى ترك الذنب. بل والعزم على عدم العودة إليه.

صحيح هذا.. لكن ذلك لا يمنع من اعتبار الاعتراف بالذنب.. مدخلا إلى

ساحة الغفران.. وعلينا أن نمسك بالخيط.. ليظل المذنب سائرا فى الاتجاه الصحيح.. تدعيما لحركته المباركة فى إصلاح ما أفسد.

منهج الفاقهين:

قالوا: إن الواعظ الثانى كان عالما.. فقيها.. يدرك من أسرار النفس.. ومن سنن الله تعالى فى الاجتماع ما أعانه على فصل الخطاب فى القضية.. لقد كان الرجل يأتى ابن عباس رضى الله عنه فيسأله: هل للقاتل من توبة.. فإذا رأى ابن عباس فى عينية الغضب قال: نعم.. وإذا وجده هادئ الملامح قال: لا.. إن السكران الذى يعب من كأس الخمر وفى يده سلاح.. سوف يقتل من يمنعه من الشرب فى هذه اللحظة الحرجة.. وتخسر الدعوة رجلها..ويظل الباطل منتفخ الأوداج!

ونحن مطالبون بالحكمة التى تفوت على الشرير غرضه.. وحتى تستطيع ترويض الوحش الرابض المتحفز فى الأعماق!

وهذا ما فعله العالم هنا لما جاءه التائب قائلا: (إنه قد قتل مائة).

يقول هكذا مؤكدا بحرف التحقيق [قد] إن العدد صحيح.. حتى يأتيه بالحكم الصحيح أيضا.. ومن خلال إدراك العالم لما يدور فى قلب الرجل من ثورة تريد أن تضع أوزارها.. ومن توبة نصوح تبحث عن القرار..

وأيضا من خلال فهمه العميق لروح الدين التى تستقبل العائدين مهما كانت خطاياهم.. من خلال ذلك كله يقول له بهدوء: نعم.. لكن «نعم» وحدها لا تكافئ شوق الرجل العارم إلى الخلاص.. ولن تضع حدا للتوتر الآخذ على نفسه كل سبيل..

ومن ثم يقول له: من يحول بينك وبين التوبة؟

وبهذا المنطق يسقط كل محاولة تحرمه حقه فى التوبة فلم يوجد ذلك الذى يحول بينك وبين مغفرة ربك.. هكذا بصيغة الاستفهام الإنكارى.. المانع من دعوى باطلة تزعم التحكم فى جنة الله تعالى.. المفتحة الأبواب لكل راغب فى

الدخول.

لقد جاء القاتل بجرح ناغر فاغر: فمد الطبيب المداوى يده: فمسح الدموع.. وطهر الجرح.. وقذف من نور حكمته فى قلب العائد المهاجر.. فكان شعاعا بدد الظلام.. وأملا طرد اليأس.. وبعثا أطلق الإرادة..

الناحية الإيجابية فى منهج الإصلاح:

من خصائص المنهج الانفعالى فى الإصلاح أنه: شعارات.. بلا شعور.. إنفعال جامح يقول لك: افعل.. ولا تفعل.. دون أن يذكر لك البديل الذى تملأ به الفراغ الناشئ من التزامك بالأمر.. إنه هياج.. بلا نتاج!

ومن مضاعفات ذلك: رجوع المأمور والمنهى إلى سالف عهده مع المعصية حنينا إليها.. بعد أن لم يجد ما يشغله عنها!

ولكن المنهج الحقيقى هو الذى ينتقل من الناحية النظرية فى التوجيه. إلى الجانب العملى الذى يدعم المعانى ويمكن لها فى القلوب بمعاشرة القدوة الحسنة. وهو ما لجأ إليه الراهب الثانى:

فقد وصاه قائلا: ايت أرض كذا وكذا فإن بها ناسا يعبدون الله فاعبد الله. ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.. لقد كان مجتمعه مسئولا عن انحرافه. فالمحرمات فيه معلنة. والمنكرات ظاهرة.

وإن إلْف رؤية الحرام. ودوام مشاهدته. يهون على النفس اقترافه. ويذهب منها هيبته.

وإذا كان من دواعى الانحراف: وجودك فى الأرض الغريبة. فليس فيها من يعرفك فيراقبك.. وليس فيها من تعرفه فتتهيبه.. فإن الأمر مختلف عندما تكون الأرض الغريبة دارا للصالحين المصلحين:

فأنت ترى القدوة الحسنة تتحرك رائحة غادية.. ومن ثم يسهل عليك عمل الخير. مع رفقة الخير.. متحررا فى نفس الوقت من تأثيرات البيئة السيئة السابقة.. التى يزداد نفورك منها كلما أحسست بمتعة ما تزاوله من عمل الخير فى

صحبة المجتمع النظيف. والأمر كما قيل:

المرء كالنبات: يعيش بنفسه. وبالأرض التى يمتص غذاءه منها. والماء الذى يشربه. والجو الذى يحيط به. فإذا نقلته إلى أرض غيرها: بدلته التربة التى انتقل إليها. والجو الذى صار إليه. ما لم يكن من النباتات التى أعطاها الله من القوة والتمكين. ما يمنع عنها هذا التغيير والتبديل. وذلك أندر من النادر. وأقل من القليل.

دور الصحبة:

وإذا كان للفرد إرادته الخاصة. وقدرته الفاعلة والتى تنفذ ما اتجهت إليه الإرادة.. فإن ذلك لا يلغي دور الصحبة. وتأثير الجماعة فى سلوكه. ونقرأ فى ذلك قوله ﷺ:

أ ـ «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير: فحامل المسك: إما أن يحذيك. وإما أن تبتاع منه. وإما أن تجد منه ريحا طيبة. ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك. وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[1].

وإذن.. فلابد من التأثير.. والتأثر.. بطريقة مباشرة. أو غير مباشرة.

وفى حالة مجالسة الصالح أنت الكاسب فى كل حال. بقدر ما تكون أنت الخاسر بمجالسة الصاحب السوء. الذى يحرق ثيابك. أو على الأقل تجد منه ريحا خبيثة.

مع ملاحظة أنك لن تجد عند جليس السوء ما تشتريه منه.. فلا خيل عنده يهديها ولا مال.. من أجل ذلك لم يقل ﷺ: وإما أن تبتاع منه كما قال بشأن الجليس الصالح. الذى تعاشره فإذا أنت منه فى خير فياض مهما كان موقعه:

فإما أن يكون عالما. فتأخذ عنه العلم. وإما أن يكون عابدا.. فتقتدى به..

وقد يكون ماهرا فى خبرة بشرية فتتعلم منه صنعة تسعد بها أمتك.. فإذا لم

---

(١) متفق عليه.

يكن واحدا من هؤلاء.. وكان رجلا مستور الحال.. يكفى أنه عزلك عن مجالس الشر.. وقد رووا فى أثر الصحبة هذا الحوار بين شاعرين:

قال أحدهما: مالى أرى الشمع يذوى فى معادنه - من صحبة النار أم من فرقة العسل؟

فأجابه الآخر: من لم تجانسه فاحذر أن تجالسه - ما ضر بالشمع إلا صحبة الفتل.

ويرحم الله الإمام عليا حين حسم القضية بقوله:

لا تصحب أخ الجهل.. وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى.. حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء.. إذا ما شاه
وللشىء من الشىء.. مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب.. دليل حين يلقاه

وقد يظن بعض الناس أن الجليس الصالح المقصود هنا هو: مجالسة عابد.. قانت لله..

وهذا بطبيعة الحال مقصود أساسى للحديث الشريف.. ولكن لم لا نجالس صاحب المهنة.. فلاحا.. أوصانعا.. أو تاجرا.. أو متخصصا فى أى فن من فنون الخدمات الاجتماعية لنأخذ عنه خبرته؟ إن معنى الحديث ليتسع لمثل هذا المراد.

ب - ونتأمل قوله ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة.. فأبواه يهودانه. أو يمجسانه أو ينصرانه».

فالفطرة التى تبرز إلى الوجود صفحة بيضاء.. تغشيها تأثيرات البيئة.. ويلاحظ أن الحديث لم يقل: أو «يسلمانه» لأنه يولد.. مسلما بفطرته.. لكن

الانحراف يطرأ من الخارج.. ولكل رفيق ترافقه. وكل مكان تحله. وكل كتاب تقرؤه. وكل رأى تسمعه.

لكل من ذلك أثر فى نفسك.. لا تحس به.. لكنه موجود كالبذرة الصغيرة فى الأرض:

بذرة زيتون مثلا: لا يراها أحد. ولا يلتفت إليها. ولكنها تصير يوما شجرة. تضطر كل من يمر بها أن يراها. وتبقى مائة سنة.

على حين يظن من ألقاها أنه نبذها ورماها. لذلك قال ابن عطاء الله السكندرى: لا تمكن زائغ القلب من أذنيك. فإنك لا تدرى ما يعلق بهما منه.

ولا يفوتنا أن ننبه إلى تقديم محاولات التهويد.. على غيرها من المحاولات الآثمة.. مما يسجل على اليهود مسارعتهم إلى الشر دائما[1].

وكأنما يحذرنا الرسول ﷺ من أخطر الأبواب التى تهب منها رياح الفتنة. لنتسلح بالوعى فى مواجهتها..

إن الطفل يولد [2] على الفطرة فى سمعه وبصره وذوقه. كذلك هو فى إرادته للخير ونفوره من الشر. فإذا عرضت الأفكار والأعمال على الإنسان الفطرى ـ خالى الذهن من الخبرات الاجتماعية والثقافية ـ فإن له القدرة على اختيار أفضلها. وأن تتوجه إرادته إلى محبتها حتى تصل إلى درجة التضحية بالمال والنفس.

ولكن الطفل يرث مثله الأعلى ـ فى العادة ـ من المجتمع الذى ينشأ فيه.. إن عيون الأطفال تلتقط مثل آلات التصوير كل المشاهد. ولكن الذى يحضر الأفلام.

فى الداخل ينتقى مشاهد معينة. فقط. وهذا يعنى أن وراء عيوننا الحسية عيونا أخرى اجتماعية تقوم بعملية الانتقاء. والناس يقرءون كتابا واحدا. ينقل إليهم عبر مقاعد التدريس. ولكن بعضهم يفهمه بما هو خير للإنسان. ولنصرة الحق والفضيلة. وبعضهم يفهمه بما هو ضد للإنسان.

---

(١) لاحظت فى الآيات التى قرن فيها اليهود بالنصارى.. سبق ذكر اليهود.. الشاهد بقدمهم الراسخة فى مجال التآمر.

(٢) مقومات الشخصية المسلمة ١١٠، ١١١.

إن عيونهم التى فى رؤوسهم تنقل نفس الكلمات. وتصور نفس الحروف. ولكن المترجم أو الشارح الذى فى داخلهم يتبنى شروحات وتأويلات متباينة.

والذى يحدد هذه الأشكال من السمع والبصر والفهم هو المواريث الثقافية والاجتماعية. التى تلقاها الفرد خلال التنشئة من بيئته الخاصة والعامة[٣].

وعن أثر البيئة يقول الشيخ على الطنطاوى:

لو لم يعش أبو نواس فى هذه البيئة الماجنة الخبيثة.. ما كان أبو نواس شاعر الغزل الفاحش. والخمر. ولولم ينشأ بشار فى أسرة منحطة. ولو لم يكن أبوه «طيانا».. ما كان بشار هجاء خبيثا. وشاعرا داعرا. ولكن ليست البيئة هكذا بصفة مطلقة:

فهناك عامل الوراثة: ولولاه ما اختلفت مذاهب ابن المقفع. فى الكتابة. عن مذهب عبد الحميد. وهما عصريان يعيشان فى بيئة واحدة تقريبا. ولا اختلف ابن الرومى عن البحترى. فإذا خالطت.. فخالط حسن الخلق:

فأنه لا يدعو إلا إلى خير. وصاحبه منه فى راحة. ولا تخالط سيئ الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلى شر. وصاحبه منه فى عناء.

ولأن يصحبنى فاجر حسن الخلق. أحب إلى من أن يصحبنى قارئ سيئ الخلق. ذلك بأن الفاسق إذا كان حسن الخلق. عاش بعقله. وخفّ على الناس وأحبوه. وأن العابد إذا كان سيئ الخلق. ثقل على الناس ومقتوه.]

روح التفاؤل:

ولاحظ عند اختلاف الملائكة روح التفاؤل بادية:

أ ـ فملائكة الرحمة.. تمثل الدفاع عن الرجل.

ب ـ ثم هى التى تتكلم أولا...

---

(١) نفس المرجع والموضع.

جـ ـ فإذا تكلمت دافعت . . وبحرارة:

(جاءنا تائبا. مقبلا . . بقلبه. إلى الله تعالى).

د ـ وأن ملائكة العذاب وهى تمثل الادعاء لا تقول: إنه كان سفاحا خضب وجه الأرض بدماء الأبرياء.

هـ ـ لكنها تختار التعبير المخفف قائلة: إنه لم يعمل خيرا قط . .

و ـ وتنتصر إرادة الخير . . وتقبض ملائكة الرحمة روح الرجل . . ويظل باب التوبة مفتوحا . . يستقبل العائدين التائبين.

من دروس الحديث:

يحافظ الإسلام على نفس الإنسان . . بما يتيح لها من عناصر الاطمئنان. وبما يحميها من أسباب التمزق والقلق.

يقول ﷺ:

«خصلتان: من كانتا فيه. كتبه الله شاكرا صابرا: من نظر فى دينه إلى من هو فوقه.. فاقتدى به.

ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه.. فحمد الله على ما فضله به.. كتبه الله شاكرا صابرا.

ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه.. ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه. فأسف على ما فاته.. لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا»[1].

والحديث الشريف يعصم المسلم من الاضطراب الانفعالى . . حين يضن بأعصابه أن تحترق أسفا أو حسدا . . على دنيا تخلت عنه وأعطت غيره . . ثم يفر به من الهبوط لو ركز على من هو دونه فى درجة التدين . . وأخيرا: يقيمه على سواء الصراط حين يوجهه إلى من هو أعلى منه فى باب التدين . . فى محاولة للصعود لحاقا به أو تفوقا عليه ثم لفت نظره إلى أنه إذا كان هناك آلاف

---

(١) رواه الترمذى

يملكون أكثر مما يملك.. فإن هناك ملايين أقل منه مالا وجاها.. فليشغل نفسه بالحمد.. بدل إنفاق العمر فى البكاء على الأطلال.. حتى لا تذهب نفسه حسرات.

وهكذا يشحذ الإسلام الهمم.. ويحررها من قيود النفس الأمارة حتى تنطلق من سجنها الضيق.. حامدة شاكرة.. وحتى تصير بهذا الحمد روحا شفافة تشيع البهجة والتفاؤل حولها.. والتى لا يتم عمل إلا فى ظلالها.

أهمية التفاؤل:

طوبى لمن لاحظ الجانب المشرق من الناس والأحداث.. ثم أمسك بالخيط ولو كان واهيا فلعله أن ينقذ مسرفا:

إن روح الإسلام تهتف بنا قائلة:

أ ـ بشرو.. ولا تنفروا.

ب ـ تبسمك فى وجه أخيك صدقة.

جـ ـ .. وخيرهما الذى يبدأ بالسلام..

إنه الترغيب.. وليس الترهيب..

لا يعنى ذلك أننا نهمل جانب النذارة وما فيها من شدة..

لأنا نقول: إن النذارة لفت نظر من غفلة أو غفوة.. لكنها ليست غاية فى ذاتها ولا هدفا.. ولو كان التخويف هدفا.. لما حقق هدفا!

والقرآن الكريم لم يقل:... ياعبادى الذين أذنبوا.... وإنما قال: ﴿الذين أسرفوا﴾..

فكان وقع «أسرفوا» أخف من أذنبوا.. أو أجرموا.. ليثق المذنب بالوعد.. فيعود..

وإذ يقول لك الإسلام: لا تستقل الصدقة التى لا تملك سواها.. فالبخل أقل

منها.. فإنه يقول لك أيضا: لاتستعظم معصيتك.. فعفو الله أعظم منها.. بل إن بعض الصالحين كان يقول: إنى فى معصيتى لأرجى لله.. منى فى طاعتى..

ذلك بأنه فى الطاعة معتمد على طاعته.. أما فى معصيته فمتكل على ربه سبحانه. فأى الوضعين خير مقاما؟!!

مثل من السنة: فى غزوة الخندق:

امتنعت صخرة قوية على الصحابة. فاستعانوا به ﷺ.

فضربها ضربة. فتت بعضها. ثم هتف: الله أكبر.. أعطيت مفاتيح الشام..

ثم ضرب الثانية.. فتفتت جزء آخر.. فهتف: الله أكبر.. أعطيت مفاتيح فارس.

ثم ضرب الثالثة. فقال: الله أكبر.. أعطيت مفاتيح اليمن.

وفى محاولة سراقه بن مالك الظفر به فى الهجرة.. أمره ﷺ أن يعود من حيث أتى. وأن يشرح الله صدره للإسلام. وله سوارى كسرى؟!! وظل سراقة يتطلع.. ويمنى نفسه..

وفى خلافة عمر رضى الله عنه فتحت فارس.. وأمسك الفاروق بسوارى كسرى.. وأعطاهما لسراقة تحقيقا لوعده ﷺ.

فانظر كيف بلغت قلوب الصحابة الحناجز.. وشل الخوف حركتهم من هذه القوى المتعددة الجنسيات الراغبة فى نسف المؤمنين نسفا.. والقادرة على ذلك أيضا.. ولكن.. من خلال هذا الضباب الكثيف وهذا الليل البارد الطويل. يلوح شعاع من البشر والتفاؤل فى مستقبل كريم واعد..

وهو درس للمتشائمين اليوم.. اليائسين من الإصلاح.. وما هذا الإصلاح ببعيد متى صدقت النوايا.. وصح التطبيق. فوسد الأمر إلى أهله.

مسئولية الأسرة:

وللأسرة دورها الهام فى إثارة نوازع الطموح.. واطلاقها من عقالها..

لتعمل فى كل مجال.. وللأم بالذات دورها المتميز.. مع وليدها.. رضيعا ومعه يافعا:

ومن الطبيعى أن يكون للمرأة تكوين عاطفى خاص. لا يشبه تكوين الرجل. لأن ملازمة الطفل الوليد لا تنتهى بمناولة الثدى وإرضاعه. بل لابد معها من تعهد دائم. ومجاوبة شعورية تستدعى شيئا كثيرا من التناسب بين مزاجها ومزاجه. وبين فهمها وفهمه. ومدارج حسه وعطفه.

وهذه حالة من حالات الأنوثة شوهدت كثيرا فى أطوار حياتها. من صباها الباكر. إلى شيخوختها العالية. فلا تخلو من مشابهة للطفل فى الرضا والغضب.

وفى التدليل والمجافاة. وفى حب الولاية والحدب ممن يعاملها. ولو كان فى مثل سنها أو سن أبنائها. وليس هذا الخلق مما تصطنعه المرأة. أو تتركه باختيارها[1].

هذا هو دور الأم فى تنشئة الأجيال. .لكن هذا الدور يظل ملازما له بعد أن يتخطى مراحل الطفولة إلى ميدان الرجولة.. فقد وقفت إلى جانبه ليكون رجلا. تغذيه بآمالها بعد أن غذته بحنانها..

لقد غضبت هند بنت عتبة لما قالت لها جارتها: أن ولدها نابغ.. وسوف يكون أميرا.. فردت عليها هند: ثكلته أمه إن لم يسد غير قومه..

وفعلا. أتسعت خلافته.. فحكم مصر وإيران وكان لأمه الفضل الأكبر.. فقد كان من وصاياها، له أن يظل مع عمر رضى الله عنه: يتعلم منه.. ولا يخالف له أمرا.

وقد تعلم من عمر: الشجاعة الأدبية. واستقلال الشخصية. ومواجهة الأخطار بجلد.. وحكمة.. ثم صلة الرحم التى يحاول بعض أدعياء التربية اليوم قطع حبالها.. بل كانت قطيعة الرحم أول الدروس فى حكم هذا المنهج الخاطئ.

وابتليت الأمة بانقسام الأسرة على نفسها.. بعد ما حاول البعض إهالة التراب على هذه الماضى المجيد . ليخلو لهم الجو.

---

(١) عباس العقاد.

وإذا استطاعت هند بنت عتبة أن تقدم للحياة علما بارزا. وسياسيا بارعا.. فإن ذلك مما يؤكد الحاجة إلى العودة إلى البيت المسلم.. ليأخذ الطفل نصيبه من الحنان.. ومن التربية.. منطلقا من روح التفاؤل التى تبعث الأمل فى القلوب.. وتجعل من الإرادة أداة تجعل من هذا الأمل واقعا ملموسا. مدفوعة بالطاقة الدافعة إلى العمل.

وإذ يقرر العلماء ما ذهبت إليه التربية الغربية من تزويد الفرد بالقوة.. المعزولة عن المثل الأعلى.. وما يذهب إليه بعض المسلمين من تربية الإرادة المرتبطة بالمثل الأعلى دون تزويد الفرد بطاقة العمل..

إذا كان الأمر كذلك.. فإننا مطالبون باستلهام روح الإسلام المتفائلة الآملة.. والتى تزرع الرجاء والأمل فى القلوب.. بقدر ما تجعل من الأمنية المجنحة حلما من أحلام اليقظة لا يغنى عن الحق شيئا.

بين الرجاء.. والأمنية:

قال الغزالى. مبينا الفرق بين الرجاء والأمنية:

إن الرجاء يكون على أصل. والتمنى لا يكون على أصل. مثاله: من زرع. واجتهد. وجمع بيدرا. ثم يقول: أرجو أن يحصل منه مائة قفيز.. فذلك منه رجاء. ومن لا يزرع زرعا. ولا يعمل يوما. قد ذهب. ونام. وأغفل سنة. فإذا جاء وقت البيادر يقول: أرجو أن يحصل لى مائة قفيز. فيقال له: من أين لك هذه الأمنية التى لا أصل لها؟

فكذلك العبد: إذا اجتهد فى عبادة الله تعالى. وانتهى عن معاصيه يقول: أرجو أن يتقبل الله هذا اليسير. ويتم هذا التقصير. ويعظم الثواب. فهذا رجاء منه. وأما إذا غفل. وترك الطاعات. وارتكب المعاصى. ولم يبال بسخط الله ورضاه. ووعده ووعيده. ثم أخذ يقول: أرجو من الله الجنة والنجاة من النار.. فذلك منه أمنية لا حاصل لها. سماها رجاء. وحسن ظن.. خطأ منه وجهلا

الأمنية إذن كما قيل: حلم.. رؤيا منامية.. تداعبك.. وأنت فى إغفاءه الكرى.. ومعها تنتقل كالعصفور الطليق:

من غصن.. إلى غصن.. تطير.. بغير أجنحة.. تعبر الآفاق.. بلا حواجز.. وبلا حدود.. أحلام وردية: كأوراق الشجر.. تغسلها حبات المطر.

وهكذا المراهقون: الذين يفرون من واقع: لا يفهمهم.. فلا يعذرهم.. فلا يعطيهم.. ما يطلبون.. ولا ما يستحقون.

وتلك عقبى السابحين مع أحلام اليقظة: يحلمون.. ويتمنون.. لكن الأمنيات لا تعطيهم دقيقا!!

أما الرجاء: فشيء إيجابي.. له رصيده من التخطيط.. والتدبير.. والعمل.. والحركة.. إذن فهو مخزون من الطاقة.. كأنما هو وقود الكائن الحي.. ثم هو: تحد للواقع.. ورفض للاستسلام له.

إلى جانب كونه لونا من التفاؤل يصعد بك في السماء. إلى أعلى دائما.. فوق عوامل الخمود والجمود.. وجواذب الأرض التي تشكل جبلا من المغناطيس.. يحاول جذبنا جذبا.. أو أسرنا أسرا. لندور في فلكه.. فنفقد بذلك وجودنا الحقيقي.

وإذا رضى أصحاب الأماني أن يكونوا مع الخوالف. .فإن الآملين يتجاوزونهم ليسعوا للآخرة سعيها.. من خلال عمل دءوب.. يكتب لهم في سجل الحياة عمرا ثانيا.

وبعد: فما زالت صورة الفتى اليائس في ذاكرتي.. وما زلت أذكر علته حين أخبرني بأنه من قراء كتاب الكبائر «المدمنين».

والذي كان رافدا ملأ وعيه بالهم المقيم..

وقلت له: إذن أخوك الفلاح أسعد منك حين جعل من الحقل.. ذلك الكتاب الأخضر.. جعله سلواه في ليله ونهاره.. يتملى فيه آيات الحكمة والجمال.

فكان من تلاميذ هذا العابد الذي كان يراقب الحقل الأخضر ساعة من كل يوم.. ليعرف فيه كيف يحيى الله الأرض الجرداء بعد موتها.. فيرجع إلى قلبه يشحنه بدوام الذكر.. فعاش سعيدا.. ومات سعيدا.

غرباء فى أوطانهم

لو كانت السعادة فى وفرة المال.. وكثرة العيال.. إذن.. فما أكثر السعداء فينا. لكن واقع الحياة لا يسلم إلى هذه النتيجة:

فقد يعطى الإنسان مالا ممدودا.. وبنين شهودا.. ومع ذلك فهو يحس بالغربة فى بيئة طافحة بالأنس والحركة..

وكأنما هو شراع تنازعه الأنواء.. أو كهف مظلم تأوى إليه أسباب الشقاء. وقد يكون هذا الرجل فى موقع المسؤولية.. وبدل أن يتخذ من المنصب سبيلا إلى قلوب أناس يعملون معه.. بدل أن يجعله فرصة يحقق بها آمالا وينجز أعمالا إذا بالمنصب يتحول بالغرور إلى نقمة.. حين يدور به كرسيه الدوار زهوا وخيلاء.. وفى رأسه خواطر من جنس ما كان يدور فى رأس فرعون مما حكاه الحق سبحانه﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فإذا لم تسعفه الظروف بمرؤوسين خائفين خاضعين صبها لعنة على رؤوسهم.

ومع أنه يملك القرار.. قرار الفصل أو العزل.. إلا أنه يحس بالغربة فى موطنه.. وبينما يعود مرءوسه قرير العين بما أحسن من عمل أكسبه حب أناس يحتفظون بصورته فى قلوبهم.. يعود رئيسه وحيدا وليس له من حصاد يومه إلا صورته على زجاج مكتبه! [الراكب.. الماشى].

ويصبح الغنى أو القوى فى موقع لا يحسده عليه أحد.. بينما الفقير أو المرءوس. فى وضع يحسده عليه كل إنسان.. حتى رئيسه. وذلك بعض ما يشير إليه موقف لإبراهيم بن أدهم فى رحلة. من رحلات حجه:

فقد ذهب ابن أدهم ليحج ما شيا. فرآه رجل يركب بعيره فقال له: إلى أين يا ابن أدهم.. قال: إلى الحج.

قال الرجل: وأين الراحلة.. فإن الطريق طويل.. قال إبراهيم: المراكب كثيرة.. ولكنك لا تراها.

قال الرجل: وما هي؟

قال ابن أدهم: إذا نزلت بي مصيبة.. ركبت مركب الصبر. وإذا نزلت بي نعمة.. ركبت مركب الشكر. وإذا نزل القضاء.. ركبت مركب الرضا. وإذا دعتني نفسي إلى شيء.. علمت أن ما بقي من الأجل أقل مما مضى.

فقال الرجل: سر بإذن الله. فأنت الراكب وأنا الماشي..]

إن إبراهيم ابن أدهم رضي الله عنه.. يعيش في جنة من مشاعره الراضية. ويقف من إيمانه على قاعدة صلبة.. تتكيف مشاعره به مع تقلبات الأيام.

فإذا هو سعيد سعادة تنسيه صرامة الواقع وقسوته.. هذه السعادة التي اعترف بها رفيقه مع قوة الراحلة. ووفرة الزاد مؤكدا أنه ـ مع رفاهيته غريب.. إلى جانب هذا الإيمان العجيب الذي تحولت به الحياة إلى أعياد دائمة متجددة، بمكابرة آلامها والاستعلاء فوق ضغوطها. وقلب كقلب إبراهيم بن أدهم «رضي الله عنه» لا يجزع لحادثات الليالي. وتظل شخصيته ثابتة في مدلهم الخطوب فلا تطير شعاعا.. فهي من إيمانها ثابتة على مرفأ اليقين:

ركب مرة سفينة فهاجت الريح وثار الموج وبكى الناس من ركاب السفينة وأيقنوا الهلاك من هول ما نزل بهم.

وكان إبراهيم بن أدهم نائما فاستوى جالسا وقال: أريتنا قدرتك.. فأرنا عفوك. فذهبت الريح.. وسكن البحر. وهكذا يصنع القلب الموصول بالخالق سبحانه.. بقدر ما تتمزق قلوب واهية الصلة بربها.

وكما كانت المراكب كثيرة.. وما رآها زميله في رحلة الحج. فإن المراكب هنا كثيرة أيضا وما رآها الخائفون الوجلون.. إنها مراكب: الثقة بالله.. وبقدرته.. وعفوه.. والتهوين من شأن الأسباب المادية التي علق الراكبون آمالهم بها فلما لم يروها أيقنوا بالغرق. أما هو.. فمن واقع إيمانه الوثيق.. أطلقها دعوة إلى الله

فكانت النجاة.. ممن يملك النجاة والإغراق وحده سبحانه وتعالى.

وما زلت أذكره وقفا لى مع صديق: قد طوف فى البلاد وجمع ثروة تفوق المليون... ثم عاد إلى القرية منتفخ الأوداج بما حقق من مال وفير.. ولم يكن يتكلم إلا بحساب.. ولا يبتسم إلا بمقدار فى محاولة لرسم صورة من العظمة الواقفة على كومة من المال. ولم أكن أملك حينئذ إلا قوت يومى.

فانظر ماذا ترى: قابلته بالأشواق.. ودرت حوله بالاستفسار عن قصة زواجه وأولاده.. وأنا سعيد أن تجدد الحياة ذكريات عزازا خلت من عمرنا. وانتهت المقابلة دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عن واحد من أولادى.. بل عاد إلى غربته ولم يدر حتى موقعى الوظيفى: أنا إذن أسعد منه.. وإن لم أمتلك مليونا، لأن القلب ـ قلبى ـ ما زال يحتفظ بوفاء قديم عصى على البلى. وسعادته الكبرى أن يمارس هذا الوفاء.. وهذا مذهبه.. بينما أماتت الثروة فى قلب صديقى الاهتمام بالآخرين.. فعاش لنفسه فقط.. إنه الحى.. الميت.. فما عاش من عاش لنفسه فقط.

إن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه يمثل حزب الله القانع بما كسب من عرض الدنيا.. السعيد بجنة عريضة ظليلة فى باطنه.. وهو الرد الإلهى على المترفين العابثين.. الساعين وراء سعادة هى السراب. ولم يستطيعوا أن يحققوا بالمال شيئا إلا المرض والندم فوقعوا فى براثن العبودية للترف.. فمضت أيامهم بلا أعياد. وتلك عقبى الذين أداروا ظهورهم لمعانى الخير فلم يسعوا لها سعيها، وفى حياة الحسن البصرى رضى الله عنه وقفات مع هذا اللون من البشر. أحيانا كان يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظة مؤثرة جدا. فقد تلا يوما قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم عقب عليها بقوله: إن قوما غدوا فى المطارف العتاق (المطارف: أثواب من خز) والعمائم الرقاق. يطلبون الأمارات ويضيعون الأمانات يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفة وظلموا من تحتهم من أهل

الذمة. أهزلوا دينهم وأسمنوا براذينهم. ووسعوا دورهم وضيقوا قبورهم ألم ترهم قد جددوا الثياب وأخلقوا الدين يتكئ أحدهم على شماله فيأكل من غير ماله يدعو بحلو بعد حامض وبحار بعد بارد وبرطب بعد يابس..

حتى إذا أخذته الكظة (الشبع) تجشأ من البشم (امتلاء البطن) ثم قال: ياجاريتى هاتى حلو ما يهضم الطعام.

يا أحيمق: لا والله ما يُهضَمَ إلا دينك.. أين جارك؟ أين يتيمك؟ أين مسكينك؟

أين ما أوصاك الله عز وجل به؟

الأمل المضيء:

ومعنى ذلك أن الذين يستغرقون بمشاعرهم فى أسباب الدنيا المادية يكلهم الحق سبحانه وتعالى إلى أسبابهم الواهية.. وسواعدهم الواهنة.. فإذا هم أقل من صروف الأيام.. وإذا حياتهم مشدودة إلى أوتاد قلقة حائرة لا تستقر على حال ومن ثم لا يحسون للسعادة طعما..

أما الذين وصلوا قلوبهم بالحق سبحانه فهم على أوفى ما يكون الثبات لأنهم يملكون من حدة البصر وجلاء البصيرة ما يحول الحياة من حولهم إلى جنات ونعيم بفضل ما يستشعرون من قدرة خالق قادر لا يغيب.. ولا يتخلى عن عبادة أبدا يروى أن حاتم الأصم أراد أن يحج فبكى أولاده وقالوا: إلى من تكلنا؟

وكانت له بنت فقالت: دعوه.. فليس برزاق فخرج حاتم إلى الحج وبات أولاده جياعا. وراحوا يوبخون تلك البنت.

فقالت: اللهم لا تخجلنى بينهم. ومر أمير البلد بالمكان فقال لأصحابه: اطلبوا لى ماء فناوله أهل حاتم كوزا جديدا وماء باردا فشرب ثم قال دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم الأصم... فرمى فيها منطقة من ذهب.. فقال: من أحبنى وافقنى. فرمى العسكر كلهم. وبكت البنت.. فقالت أمها: ما يبكيك.. وقد وسع الله علينا قالت: لأن مخلوقا نظر إلينا فاستغنينا. فكيف لو نظر الخالق

سبحانه إلينا؟ لقد تصورت الأسرة ماعدا البنت الراشدة ـ أن غياب العائل معناه: ضياع الرزق المرتبط بناصيته..

ومن فرط إحساسهم بدور العائل الذاهب بكوا وحاولوا منعه من أداء الفريضة. لكن ابنة حاتم تحدر إليها من أبيها قبس من إيمانه الوثيق.. فجاوزت هذا الأفق الضيق.. فشجعته على المضى فى رحلته المباركة.. لأن الأرزاق على الخلاق..

وفعلا جاءهم الرزق المقسوم.. لكنه لم ينزل من السماء... فالسماء لاتمطر ذهبا ولا فضة. وإنما دفعت الأسرة الثمن: كوزا.. جديدا.. وماء باردا فلما بكت البنت متأثرة بما حدث.. كانت فى قلب الأم بقية من تصورات الأرض.. فاستنكرت بكاءها بعد أن جاءهم الفرج.

وتعطيها ابنتها درسا فى الإيمان.. بأن هذه قدرة المخلوق فأين هى من قدرة الخالق؟

وهى محاولة تخرج بها البنت بالأسرة من ضيق الأسباب إلى سعة الإيمان.. ومن غربة الحياة مع حظوظ النفس.. لتعيش فى جو الإيمان وما يثمره من سعادة لا يحس بها إلا المؤمنون بالله إيمانا يرفعهم فوق الواقع المحدود.

الحجاب الحاجز:

إن الارتباط بالوالد.. كأنه الرازق.. وبالطبيب.. كأنه الشافى.. وبالراحلة والطائرة.. والسيارة.. وكل مظاهر الحياة.. كأنها صانعة المستقبل للإنسان.. جهل بقدرة الله.. ثم هو حجاب يحبسك بين جدار من ذاتك وأهوائها فلا تستطيع الوصول إلى ساحة الرضوان.. والاستمتاع بالنعيم الحقيقى.. المنبعث من الرضا بقضاء الله تعالى.

وإنك لتدعو فلا يستجاب لك.. وتحاول الأنطلاق فلا تنطلق لأن قيود الدنيا وقفت بك فى مكانك.. وسارت بك أهواؤك من سيئ إلى أسوأ.. وتلك عقبى الذين يثقون بأسباب الدنيا ثقة عمياء.. ترمى بهم فى التية يدورون حول أنفسهم بلا هدف.

وإنها قصة جموع غفيرة من المسلمين: علموا.. وملكوا.. وتنعموا.. لكنهم ذهلوا عن العاقبة.. فلم يُقروا بضعفهم.. ولم يشكروا المنعم سبحانه. أى أن آمالهم وقفت بهم عند القشرة الظاهرة وحرمتهم من الغوص فى الأعماق. ليحسوا بوجودهم الحقيقى.. المرصود أساسا لدار هى الحيوان نسُوها أو تناسوها.. فصنعوا بالغفلة حجابا كثيفا.. وأقاموا بالاستغراق فى الآمل الكاذب سدا منيعا حجبهم عن الله تعالى وهو المعنى الذى أشار إليه ابن أدهم عندما سئل:

ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا: قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه. وعرفتم الرسول «ﷺ» فلم تتبعوا سنته.

وعرفتم القرآن فلم تعملوا به. وأكلتم نعم الله تعالى فلم تؤدوا شكرها.

وعرفتم الجنة. فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها.

وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه.

وعرفتم الموت. فلم تستعدوا له. ودفنتم موتاكم.. فلم تعتبروا.. وتركتم عيوبكم.. واشتغلتم بعيوب الناس.

ومعنى ذلك أن الجمهرة الغفيرة من المسلمين.. نجحوا فى الأمتحان النظرى.. وسقطوا فى الأمتحان العملى.. نجحوا فى الحصول على الشهادات.. واحتياز الأموال.. والتفنن فى صورة الملذات، لكنهم سقطوا حين لم يستثمروا الزكاء والأموال لصالح أنفسهم ودينهم جاهلين أو متجاهلين.. أن الله تعالى تعبدهم بهذه الثروات العلمية والمالية. لينظر كيف يعملون.. وأنه سبحانه لا ينظر إلى الأجسام والأموال. لكنه ينظر إلى ما تثمره من أعمال.

ولك أن تتصور بُعد المسافة الإيمانية بين رجل يرفل فى بحبوحه النعيم هكذا.. ثم لا يلفته النعيم بقوة إلى خالقه سبحانه وبين رجل تدهمه المصائب فإذا هو بالإيمان يحولها كيماويا إلى نعم تحرك لسانه بشكر المبتلى سبحانه يقول عمر رضى الله عنه ما من بلاء يصيبنى إلا وأرى لله على فيه أربع نعم.

النعمة الأولى: أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى آخرتى.

النعمة الثانية: أن البلاء لم يقع أكبر مما وقع.

النعمة الثالثة: أن الله صبرني عليه فاحتملته.

النعمة الرابعة: أن الله تعالى ادخر لى ثواب الصبر عليه.

ولأن النعم كثيرا ما تنسى الإنسان واهبها سبحانه.. ترى علماءنا المخلصين يحاولون الخروج بالمفتونين بها من كهوفهم المظلمة.. ليقيدوا هذه النعم بشكرها ويقدروها حق قدرها لافتين الأنظار إلى النعم الجزيلة التى تحف بهم، بينما هم ساهون. قالوا النعم ثلاث: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبد عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدا يقيدها به حتى لا تشرد فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر.. ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصره بالطرق التى تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التى هو فيها ولا يشعر بها. وقد حكى أن أعرابيا دخل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين: ثبت الله عليك النعم التى أنت فيها بادامة شكرها وحقق لك النعم التى ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته.

وعرفك النعم التى أنت فيها ولا تعرفها.. لتشكرها فأعجب به الرشيد فقال: ما أحسن تقسيمه. ونقول نحن: ما أحسن منهجه فى الأخذ بيد الشاردين الرافلين فى حلل النعيم ثم هم غافلون عنه.. ليحسوا بالأنس والقرار.

وليخرجوا بالإحساس بها من عزلتهم وغربتهم. وما أكثر الذين يعيشون فى البساتين والظلال بينما تجيش نفوسهم بمشاعر الضيق والقلق.. إنهم أصحاء الجسوم مرضى المشاعر، أقوياء.. لكنهم ضعفاء أمام أعدائهم. تسجل أرقام حساباتهم نسبة عالية.. غير أن الأرقام لم تحقق لهم ما يرجون من وئام وقرار.

ولكن ابن آدهم.. وإن أضناه السفر.. وأدمى قدميه الطريق.. إلا أنه فى نظر نفسه قوى.. صحيح.. يمثل جلال الحق الذى يعبر عنه بصبره. وإن كان فردا.. وإذا كان الباطل يتفشى فى مجتمع مستكثر مستكبر. فإن هذا الاباء وهذا الاستعلاء يزرى بأساليب الباطل التى تريد فرضه على الحياة وبينما يتخبط

المبطلون فى التية بحثا عن السعادة.

التى لا يكتشفونها يكتشف المؤمن الحقيقة.. ليمنحه الكشف سعادة.. لا يحس بها المبطلون لأنهم فقدوا صلاحية تذوقها.. ورحم الله إبراهيم بن إسحاق الحربى:

لقد صبر أربعين سنة. وشق رأسه يؤلمه، فما أخبر أحدا من أسرته بذلك وزهد ثلاثين عاما وحصته اليومية.. رغيف واحد.. ولم يتأثر ذكاؤه ولا قواه بمرارة الواقع.. وكان أعلم علماء عصره. لقد اكتشف سر الحياة.. ومتعة الموحدين.. فبدأت دائرة سعادته تنداح.. ومملكته تتسع.. وأعياده تمتد.. وأعظم كشف فى الحياة: كشف الحقيقة فى خضم الحياة المادية..

وأعظم كرامة هى الاستقامة على الجادة فى بحور المغريات:

يقول المودى: لا كشف أعظمُ من إدراك حقيقة التوحيد فى متاعب هذه الدنيا المادية الخلابة.. ولا كرامة أكبرُ من الاستقامة على جادة الحق، إزاء ترغيبات الشيطان وذريته وترهيباتهم ووساوسهم.

ولا مشاهدة للأنوار أحق للقدر والإجلال من الأهتداء إلى نور الحق وأتباعه فى دياجير الظلام والكفر والعصيان والضلال المطبق على رؤوسنا اليوم وإن أكبر بشرى يمكن أن يرتاح إليها المؤمن هى: أن يقول ربى الله ثم يستقيم على صراطه المستقيم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ** ﴾ [فصلت: ٣٠].

البؤس المقنع:

وفى هذا الجو المأنوس يمضى المؤمنون على صراط الله. وفى الوقت الذى يتبلغ فيه المترفون بثمن الكرامة المضيعة والسعادة الغاربة يختط المؤمن لنفسه:

حياة روحية.. والناس من حوله ماديون ويدور فى أفق الراحة.. وهم من حوله متعبون.. وتملأ القناعة قلبه.. والجشع يغتال العابثين. وصدورهم مستودع هم مقيم. وتمتص الحياة اللاهية رحيق السعادة من دنياهم.. وإن توفرت بين

أيديهم أسبابها.

ويصور عبد الوهاب عزام هذه الحقيقة فى قوله: قال لى صاحبى: أراك غريبا بين هذا الأنام دون خليل قلت كلا.. بل الأنام غريب أنا فى عالمى وهذا سبيلى إن الرضا بالقضاءهو طوق النجاة فى خضم هذه الحياة: وقد سَعِدت الحياة باسلافنا الأبرار يوم كان الرضا بالقضاء جوهر حياتهم. قال سفيان الثورى بحضرة رابعة العدوية يوما: اللهم أرض عنا فقالت له رابعة: أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت غير راض عنه.

فقال لها: متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى.

فقالت له: إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة: فمع أن الرجل لم يدع بإثم ولا بقطيعة رحم لكن رابعة تبادره لافتة نظره إلى القمة فى الرضا والتى يجب أن يشد رحاله إليها.. وإذا كان سروره بالنعمة أعلى - وهذا شيء طبيعى فمعنى ذلك أن حظ نفسه ما زال ملحوظا مُؤَثِرا.. وذلك مما يخدش معنى الرضا ولكن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يتقدم على طريق الرضا خطوة أخرى: فقد كان رضى الله عنه مجاب الدعوة ويقصده الناس ليدعو لهم. فقيل له: أنت تدعو للناس.. فلو دعوت الله تعالى لرد عليك بصرك.

فقال: قضاء الله أحب إلى من بصرى.

فانظر كيف تجاهل متعة الابصار يستعيد بها ذكريات شبابه وصباه راضيا بالعمى.. بل حبب إليه العمى لأن الله قد رضيه له وإنما رضاه فى رضاء ربه سبحانه.. لا فيما تشتهيه نفسه!!

ولم تخل الساحة الإسلامية من نماذج مشرقة على نفس الطريق.. وفى حلكة الليل البهيم - كان رضاها عن الله تعالى نورا تبصر فى سناه الدار الآخرة وما أُعد لها من نعيم ينسيها ما حولها من متاع. يروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل: دلنى على أعبد أهل الأرض.

فدل على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وهو يقول: إلهى.. متعتنى بها ما شئت أنت.. وسلبتنى ما شئت أنت وأبقيت لى

فيك الأمل يابر . يا وصول

وكم فى دنيا الناس من أناس صحاح الأجسام. يتمرغون فى جنات وعيون لكن حياتهم خالية من عنصر الرضا فحولها الطمع إلى خراب وعاشوا غرباء فى أوطانهم. وها هو ذا الرجل فى محنة لا يحسد عليها . ولكن الأمل ما زال يغمر صدره بالرضا. وما زالت ثقته بربه تمسك قلبه أن يزل وعقله أن يضل

وربما برقت فى ذهن أحدهم بارقة من الطمع فى الدنيا فينهض وجلا خائفا مذعورا لأن نفسه تعلقت بشئ لم يأذن به الله:

شوهد أحد العارفين يبكى. فقيل له لماذا تبكى؟ قال: إننى أبكى منذ أربعين سنة على ذنب أذنبته فسئل ماهو الذنب قال قلت مرة لشىء كان ليته لم يكن

أى أنه تمنى فى لحظة من عمره إلا يكون أمر مّا قضاه الله قد وقع فبرز حظ نفسه وبالتالى ضعف رضاه عن قضاء ربه.. فعاقب نفسه بالبكاء نصف قرن تقريبا..

وفى الوقت الذى تبرهن فيه الحضارة الحديثة على فشلها فى تحقيق توافق الإنسان مع عالمه.. بما ترمينا به الأنباء من حوادث الانتحار والسَّخط على الحياة.. وخنوع الارادة هناك أمام أحداثها وعللها فى هذا الوقت تطالعنا من تاريخنا نفوس صارعت الحياة فصرعتها وفى قمة مأساتها تبصر الغد المأمول من خلال رضاها بقضاء الله تعالى فإذا هى فى محنتها صحيحة النفس متماسكة الفكر. راشدة مستبشرة.. كان من دعاء بعض العارفين فى بلائه

اللهم إن كان عذابا فاصرفه وإن كان صلاحا فزد فيه.

ثم هَبْ لنا الصبر على البلاء والشكر عند الرخاء

فانظر كيف لم يسحق الألم نفسًا موصولة بربها.

إنها راضية بقضائه وقدره لكنها تطلب أن يدوم هذا الرضا بإمدادها بالصبر على بلاء النقمة وبلاء النعمة معا فلا يتجه إلى الله بقلب جزع ونصر والهة وإنما يدعوه بقلب الراضى بعدله المق بفضله أن يعينه ليكون عد حسر الظر به صابرا شاكرا فإذا كانت العلة عدابا فهو لا يطيقه ومر ثم دع به أر

يصرفه. وإذا كانت اصلاحا لنفس شغلها المال.. وألهتها العيال.. لتعود إلى صوابها فمرحبا بالمرض وإن كان مرا..

يقول ابن الرومى:

لو يصحّ اليقين ما رغب الراغب إلا إلى مليك السماء غير أن اليقين أضحى مريضا مرضا باطنا شديد الخفاء ورحم الله سلفنا الصالح: لقد كانوا فى كل أحوالهم سعداء: كانوا على السراء سعداء. وكانوا على الضراء سعداء.

يقول فيهم الرسول «ﷺ»:

«عجبا لأمر المؤمن: إن أمره كله خير: وليس ذلك لأحد إلا المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» رواه أحمد فى مسنده.

وقد كانوا فى حربهم وسلمهم سعداء: كانوا فى سلمهم سعداء: لأنهم للسلم. والعدل والأمن والطمأنينة خلقوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وللعمران والإصلاح وجدوا: **﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾** [الأعراف: ٧٤]. وكانوا فى حربهم سعداء: لأنهم ماكانوا يشنونها إلا لتقويم المعوج وإصلاح الفاسد وتحقيق راحة الإنسانية وسعادتها.

وما كانوا يحاربون إلا الجور والعدوان.. وكانوا سعداء برضاهم عن أنفسهم حيث تَحَقّق لها من كمال اقتضته فطرهم؟ التى فطرهم الله عليها.

قسوة المخلوق ورحمة الخالق

كان ذلك فى اجتماع عام:

اشتجر الخلاف بين القوم.. وعلت الأصوات إلى ما يشبه الأمواج الهادرة فى يوم عاصف: ذلك بأن زيدا من الناس أخطأ فى حق زميله. وانقسم الجمع إلى فريقين:

فريق يستنكر الخطأ يُرمى به برىء. وفريق آخر يفتح الطريق أمام المخطئ.. ليعتذر.. وفى اللحظة التى يتم فيها الاعتذار يبلغ الإحساس بالذات منتهاه.. فيرفض المظلوم.. توبة التائب!

وقلت للقوم: وهكذا تبدو رحمة الله تعالى بعباده حين تكفل هو سبحانه بإنزال شريعته الراحمة.. ولو أنه سبحانه وكل إلينا وضع شريعة تنظم حياتنا.. لتقطعت بنا الأسباب وأصبحت الحياة فوضى.. بلا نظام. قاسية.. بلا رحمة.

وكانت نعمته تعالى جليلة عندما تعبدنا بشريعة، تتجاوب مع فطرة الإنسان.. وتفتح الطريق حتى أمام المسرفين على أنفسهم، ليستأنفوا بالتوبة حياتهم من جديد. إنه يفتح الباب بين أيديهم.. بل إنه ليدعوهم إليها فى الليل إذا سجى. والنهار إذا تجلى. ثم هو سبحانه يحببهم فى العودة إليه تائبين.. وهو سبحانه بعد هذا كله، أشد فرحاً بتوبة عبده المخطئ من رجل عثر على ناقته الضالة عبر الصحراء.. فى لحظة أوشك فيها على الموت!

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾

يحب الذين يسرعون إليه تعالى. ليقبل التوبة عنهم. وليخلصهم بهذا القبول من عذاب الضمير. وقسوة الواقع.

الرسول على نفس الطريق:

وقد سعد ﷺ بموقف حكاه لأصحابه يوماً.. اشتد فيه ضغط المظلوم على

ظالمه، بين يدى الحق سبحانه يوم الحساب . . وجاء العفو مسك الختام . . وكان هو الدرس الذى يلقنه محمد ﷺ لأمته . . ليكون لهم من العفو نصيب، يصلح به حالهم ومآلهم:

عن أنس رضى الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر:

ما أضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى؟

فقال: «**رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة تبارك وتعالي، فقال أحدهما: يارب، خذ لى مظلمتى من أخى..**

قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته.

قال: يارب، لم يبق من حسناتى شيء.

قال: رب، فليحمل عنى من أوزارى»

قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «**إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم.**

فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر فى الجنان. فرفع رأسه فقال: يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا؟ لأى صديق هذا؟ لأى شهيد هذا؟

قال : هذا لمن أعطى الثمن؟

قال: يارب ومن يملك ذلك؟

قال: أنت تملكه. قال: ماذا يارب؟

قال: تعفو عن أخيك. قال: يارب فإنى قد عفوت عنه.

قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة».

ثم قال رسول الله ﷺ : «**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة**».

وفى حديث الشفاعة العظمى تبصرة وذكرى لمن كان له قلب يعى. . وينفعل بالخير والبر. . كرد فعل بشرى إزاء هذا الكرم الإلهى العظيم.

فى حديث الشفاعة عند الشيخين:

أن الرسول إذا قال: «**يارب.. أمتى أمتى**.

يقول الله تعالى: «**انطلق، فمن كان فى قلبه مثقال حبة من شعير من إيمان فأخرجه من النار**».

فإذا انطلق النبى ففعل. ثم عاد للسؤال. قال الله له:

«**انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها**».

فإن عاد الثالثة قال:

«**انطلق فمن كان فى قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه منها**».

فإذا عاد الرابعة وقال: «**يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله**».

قال تعالى: ليس ذلك إليك. «**ولكن وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى، لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله**».

لا يأس من رحمة الله:

وقد كان الصالحون من عباد الله يتعرضون لرحمة الله تعالى دائماً.. وعلى قدر ما كان الواحد منهم سيئ الظن بنفسه وبعمله على جلالة قدره.. إلا أن ثقته برحمة الله تعالى لم تنقطع تحت أى ظرف من الظروف.

قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: يارب: إنك قلت: إن رحمة الله قريب من المحسنين فإن كنت محسناً.. فارحمنى... فقد قلت: وكان بالمؤمنين رحيما.

فإن كنت مؤمناً فارحمنى.. فإن لم أكن فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة فارحمنى. . وإلا فأنا فى مصيبة!!

وقد قلت يارب: ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة..**﴾ فارحمنى.

الساعون إلى الهيجا بغير سلاح:

ولكن عمر بن عبد العزيز وهو يثق برحمة الله تعالى ثقة تجعله أبداً على رجائها، إلا أنه كان فى نفس الوقت عاملاً مجاهداً. . مفندا بالعمل والأمل مزاعم الذين يطلبون رحمة الله، ثم لا يدفعون ثمنها. . هؤلاء الذين يسعون إلى المعركة بغير عدتها وسلاحها. وفى هؤلاء يروى البخارى:

«ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

«وإن قوماً ألهتهم أمانى المغفرة. وقد خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم. وقالوا: نحن نحسن الظن بالله تعالى. وكذبوا. لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

نماذج:

عندما طلب المستمعون من واعظهم أن يتكلم فى فضل عتق الرقبة. . ما طلهم الشيخ عاماً. . ثم بدا يتحدث فيما طلبوا. .

ولما سألوه عن سر التأخير بين لهم أنه لم يعتق رقبة قط. . ومن ثم فلم يجد مساغاً للحديث عن أمر لم يسعد بتنفيذه . . فسعى حتى دبر ثمن عبد. . ثم أعتقه. ليمكن بعد ذلك أن يتحدث إليهم من موطن القوة.

وعندما نصح العبد سيده يوماً أن يتوب. . اعتذر السيد بأن الله غفور رحيم. . ولما أمر السيد العبد يوماً بأن يبذر في أرضه قمحاً. . تعمد أن يبذرها شعيراً. . فلما ذهب السيد إلى الحقل فلم يجد قمحا. . قال له العبد: لا يأتى الشعير. . بالقمح. . ولا تجنى المغفرة. . من الفجور!!

إن الأمر على ما يقرر بعض العلماء تبصير للإنسان. . ووصول به إلى ما ينشده من سمو: يطلب الإنسان الكمال دائماً. . ولما كان الجمال أعلى صور الكمال. . . فهو يطلبه. . وأعظم الجمال. . جمال الحق. . وأعظم الحق معرفة الله تعالى. . لأنه الأعظم الأكبر.

وللوصول إلى هذه القمة العليا لابد من امتحانات ومعاناة يحس الإنسان فيها بأنه يصعد بعمله فى السماء. ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾

هارب من الجحيم

بحكم العهد الوثيق.. عهد المؤمن مع الله.. فإنه يحب ربه سبحانه وتعالى حبا يترتب عليه أن يكون هواه تبعا لشرعه: فيحب ما أحبه الله بقدر ما يبغض ما نهى عنه.. ولا بأس أن يحب المؤمن متاع الدنيا.. شريطة ألا يكون فى حبه متجاوزا حدود ما أمر الله تعالى..

وعلى هذا الأساس.. تمضى به أقداره مع الحياة.. فلا يضل ولا يشقى. فإذا نزغه من الشيطان نزغ نهض مفزعًا.. مذعورا.. وربما دفع حياته ثمنا لخطأ ارتكبه.. وقد يكون مفروضا عليه.

ذلك بأن قضية المؤمن ليست هى: هل أبقى على الحق.. مع مرارته.. أم استسهل الباطل لمراءته؟ لا ليست هذه مشكلته..

لقد حسم القضية مع الحرام.. فهو لا يفعله.. بل لا يفكر فيه.. وإنما قضيته هى الحلال أوّلا.. والحلال أخيرا. وهو فى نطاق هذا الحلال يقول هل يفعل الحسن.. أم الأحسن.. الفاضل أم الأفضل:

فإذا هزم فى معركته مع الشيطان لحظة.. تيقظت نفسه اللوّامة.. لتمسك بخناقه.. منغصة عليه حياته.. ثم لا يهدأ له بال حتى.. يتوب.. أو يُقضى عليه فيموت.

ونحن اليوم أمام قصة مؤمن هذا شأنه.. وهو ثعلبة بن عبد الرحمن خادم رسول الله ﷺ.. فماذا حدث؟؟

روى أن «ثعلبة بن عبد الرحمن» نظر فى بيت من الأنصار فشاهد امرأة تغتسل. فهام فى الصحارى أربعين يوما. خشية أن ينزل فيه قرآن!

وجاء جبريل فقال للرسول ﷺ: «إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن رجلا من أمتك. بين هذه الجبال. يتعوذ بى».

فقال ﷺ «ياعمر.. ياسلمان.. انطلقا.. فائتيانى بثعلبة».

فخرجا. فلقيا راعى غنم. من رعاة المدينة. فقال عمر: هل علمت بوجود شاب بين هذه الجبال؟ يقال له: ثعلبة؟

فقال الراعى: لعلك تريد الهارب من جهنم.

فقالا له: وما أخبرك أنه هارب من جهنم؟

فقال: لأنه إذا كان جوف الليل. خرج علينا من بين هذه الجبال. واضعا يده على رأسه وهو ينادي: ياليتك قبضت روحي في الأرواح.. وياليتك قبضت جسدي في الأجساد.. ولم تجرِّدني لفصل القضاء.

قال عمر: إياه نريد.

ولما كان الليل.. خرج الثلاثة.. فسمعوه ينادى.. فأقبل عليه عمر. فاحتضنه.

فقال ثعلبة: هل علم رسول الله ﷺ بذنبي؟

فقال عمر: لا علم عندى.. إلا أنه ذكرك بالأمس. وأمرنا بأن نحضرك إليه.

وتوجه الثلاثة إلى رسول الله ﷺ. وهو يصلى الفجر فى المسجد. فلما سمع ثعلبة قراءة النبى ﷺ خر مغشيا عليه .

ولما سلم ﷺ حركة فانتبه. فقال له: «ما غيبك عنى ياثعلبة؟»

قال: ذنبي يارسول الله:

فقال له الرسول:

«أفلا أدلك على آية تمحو الذنوب والخطايا؟»

قال: بلى يارسول الله.

قال: «قل: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾».

فقال ثعلبة: ذنبى يارسول الله أعظم.

فقال له ﷺ «بل كلام الله أعظم!»

ثم أمره ﷺ بالانصراف إلى منزله. فمرض ثمانية أيام.

فأعلم «سلمان» الرسول بمرضه.

فقال ﷺ: «قوموا بنا إليه». فدخل ﷺ. ومن معه. فأخذ رأسه. فوضعه في حجره. فأزال ثعلبة رأسه عن حجر رسول الله ﷺ

فقال له الرسول: «لم أزلت رأسك عن حجرى!»

قال: لأنه ملآن من الذنوب.

فقال الرسول: «ياثعلبة: ما تشتكى؟» قال: مثل دبيب النمل بين أعظمى.. ولحمى.. وجلدى..

فقال له: «وما تشتهى ياثعلبة»

قال: أشتهى مغفرة ربى.

فنزل جبريل فقال يامحمد:

«إن ربك يقرئك السلام. ويقول لك: لو أن عبدى هذا لقينى بقُراب الأرض خطايا.. لقيته بقرابها مغفرة!!»

فأعلمه النبى بذلك. فما كان ثعلبة إلا أن صاح صيحة مات فيها.

فأمر ﷺ بغسله وكفنه. فلما صلى عليه ﷺ جعل يمشى على أطراف أنامله. فلما دفنه. أقبل عليه الناس قائلين: يارسول الله: رأيناك تمشى على أطراف أناملك. فقال: **«والذى بعثنى بالحق نبيا.. ما قدرت أن أضع قدمىّ على الأرض.. من كثرة مانزل من الملائكة لتشييعه!!»**

وفى أسد الغابة: أنه أسلم وكان يخدم رسول الله ﷺ. وأنه ﷺ بعثه فى حاجة. فمر بباب رجل من الأنصار. فرأى امرأة الأنصارى تغتسل فكرر النظر إليها.

وقفة تأمل

يقولون: إن من بكى على خطيئته.. فقد راسل ربه..

وقد وصلت رسالة «ثعلبة» إلى ربه سبحانه وتعالى لما بكى على خطيئته.. وهام على وجهه حيران..

وكان رد الرسالة: حركة فى السماء.. وحركة فى الأرض.. نزل جبريل من السماء.. ووجه الرسول عمر وسلمان ليأتياه بالهارب من الجحيم.

فمن هو «ثعلبة» الذى اهتزت له السماء والأرض. وماذا فعل حتى ينال كل هذا التكريم؟

أما ثعلبة: فهو مجرد خادم فى بيت رسول الله ﷺ... وأما خطؤه: فهو نظرة فرضت عليه فرضا.. قلبت ميزان حياته فهام على وجهه بين الجبال..

وإذن فلم يهتز الوجود تنويها بشجاعة بطل.. أو تقديرا لسخاء كريم..

وإنما المذنب يحمل بين جنبيه نفسا لوامة.. أرقته.. فحمّلته من العذاب مالا يطيق.. فى موقف يبدو فيه الخادم.. والمملوك فى ظل دولة الإسلام أشرف من أحرار الدنيا.. فى غيبة الإيمان!

وإذا كانوا يقولون: ليست العظمة ألا تسقط أبدا.. بل فى أن تسقط.. ثم تنهض من جديد.. فقد كان ثعلبة عظيما بهذا المقياس:

لقد زل يوما.. فلا حقته نفسه اللوامة بالتثريب على هذا النحو العجيب.. فحاول الفرار حتى من نفسه بين جنبيه.. ويطالعك من المشهد حساسية مفرطة.. فى ضمير غفا يوما.. ولكنه استيقظ فى نفس اللحظة.. ليبدأ محاكمة صاحبه.. وقد حكم عليه فعلا!

ولكن: ماهو حجم الذنب هنا؟ وهل كان يستأهل هذا العذاب.. وهذا الاغتراب؟

إن ثعلبة يخرج من بيت مخدومه ﷺ. لقضاء مهمة محددة.. ولم يكن هناك ترصد.. ولا سبق إصرار.. على رؤية ماحرم الله.

ولكنها المفاجأة التى استغلها الشيطان.. فلم يكتف بالنظرة العفوية الأولى.. وإنما كررها.. كما تقول الرواية الثانية.. ثم تذكر على الفور خطأه.. الذى صار بالتكرار خطيئة! خطيئته التى لم تكن زنا.. ولا وعدا..

لم تكن نظرة.. فابتسامة.. فكلاما.. فموعدا.. فلقاء. وإنما هى الشهوة يوقظها المشهد المثير.. مشهد امرأة عفيفة شريفة نسيت مثلا أن تُحكِم إسدال سترها.. أو إغلاق بابها.. فكان ماكان.

ثم.. ليس هناك غريم يلاحقه بما حدث.. ويطالبه بدين مستحق.. وإنما هى محكمة الضمير تصدر حكمها فى قضية كان يمكن أن تظل سراً بينه وبين الله تعالى.. فما سر هذا الفزع.. وهذا الفرار؟

معنى الخطأ هنا: لقد خان عهده مع مخدومه ﷺ فلم يكن أمينا.. مرتفعا فى أمانته إلى مستواه.. وإذا كانت قيمة العبد من قيمة سيده.. فإن سيرته يجب أن تكون على مستواه نبلا ووفاء. وما أكثر الخطائين الذين ينحرفون فى ستر من الليل.. ثم تَلْقاهم طلقاء.. كأن شيئا لم يكن.. فأقم عليهم مأتما وعويلا..

أما ثعلبة فقد كان فى نظر نفسه خائنا.. لأنه يعرف من توجيهات مخدومه ﷺ.

إن الأمانة هى أن تؤدى حقوق الرءوف الأعلى. وألا تفشى سرَّ من أودع إليك شيئا من شئونه. وألا تنقض عهد من عاهدته وألا تختلس ماليس لك فيه حق. وألا تغش امرءا فى معاملاته. وأن تحافظ على من جُعل تحت رعايتك وإذا ائتمنت على الأمانة فارعها إن الكريم على الأمانة راعى.

فالأمانة عليها مدار عموم المعاملات ونجاحها. وهى أصل من أصول الديانات. ولذلك أكدت جميع الشرائع وجوب رعايتها والحث على الاتصاف بها.

الانتصار الأهم:

إن على الإنسان أن يصلح نفسه عشر مرات فى النهار لأنه إذا كان فى قهر النفس مرارة.. فإن بقاء الشقاق بينك وبين نفسك ما ينغص حياتك. بالأكثر. ويزعج رقادك. وإذا كان الذى ينتصر على عدوه قويا.. فالذى ينتصر على نفسه أقوي. لأنه ينفع نفسه.. ومجتمعه على سواء: ومن هنا قال خالد بن عبد الله: خير الناس خيرهم لنفسه:

وذلك أنه إذا كان كذلك: أبقى على نفسه من السرقة لئلا يقطع. ومن القتل لئلا يقتل. ومن الزنا لئلا يحد. فسَلِم الناس منه بإبقائه على نفسه!].

ولقد كان قرار «ثعلبة» أن يلزم نفسه التقوى.. وأن يحاسبها على فعلتها حسابا عسيرا.. وصل بها فى النهاية إلى.. الموت!

كان القرار هو الفرار! وكان قراره فوريا وحاسما بالهروب من أرض المعصية.. والتى تذكره بما يكره.. ويخشى.

لقد كان القرآن حاضرا فى وعيه.. وهو يتخذ قراره الصعب..

وهكذا كان الناس.. يوم كان القرآن حارسا يقظا منتصبا فى قلوبهم.. وحتى الخدم.. كانوا على نفس المستوى إجلالا للقرآن وتعظيما.. فحملهم مالا يطيقون.. فاستعذبوه.. فرارا من عذاب الآخرة..

ويوم تخلت أمتنا عن كتابها.. فاتخذته مهجورا.. انحلت العقدة الوثيقه.. وطمع فينا الأذلون.. الذين لا يملكون من مقومات العزة شيئاً.. ولكنهم استاسدوا لما رأونا ضحّية سهلة.. وما كانت الذئاب ذئابا.. إلا لأن الخراف كانت خرافا!

وحين نتأمل هذه التوبة النصوح ندرك فى نفس اللحظة أن بإمكان أمتنا أن تعود إلى المرفأ المن.. بمثل هذه التوبة: بسلائق: الصدق.. والأمانة... والعدل.. وحسن الخلق: فالصدق: يوجب الثقة. والأمانة: توجب الطمأنينة.

والمنفعة: توجب المحبة والألفة. والمضرة: توجب البغض والعداوة. والعدل:

يوجب اجتماع القلوب. والجور: يوجب الفرقة والتنافر. وحسن الخلق: يوجب المودة. وسوء الخلق: يوجب المباعدة.. والانبساط: يوجب المؤانسة.. والانقباض: يوجب الوحشة.. والكبر: يوجب المقت.

الخطاؤون الأخيار!

ويتلطف سبحانه وتعالى بعبد من عباده.. هو خادم مجهول فى أرض الله.. فيرسل جبريل عليه السلام..

وعهدنا بالملائكة أنها تنزل جندا للحق.. أو مواساة لنبيه.. أو فصلا فى قضية عامة. لكن جبريل الأمين ينزل هذه المرة.. من أجل واحد.. أذنب ذنبا.. رآه عظيما.. لعظمة من خالقه سبحانه بهذا الذنب الصغير.. ينزل عليه السلام.. لا لتأنيبه.. ولكن.. إشفاقا عليه.. وتلطفا به.. وإعلانا للأمة أن أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسجين..

وأن الأمة الإسلامية محتاجة إلى مثل هذه النفس اللوامة.. التى تشكل فى كيان المسلم محكمة إليه ترده فلا يظلم.. فإذا تورط فى الظلم أسرع بالعودة إلى ربه.. ولو أن كل مسئول ملك هذه النفس اليوم.. لما كان بيننا منحرفون!

القائد يتفقد جنده:

ويرسل عليه الصلاة والسلام عمر وسلمان ليأتياه بالعبد الآبق.. الضارع إلى سيده أن يقبل توبته.. والذى يتمنى أن لم يكن وجد ابتداء.. حتى لا تكون منه هذه النظرة المحرمة!

أجل: إنها نظرة.. ولكن قليل النار غير قليل!. والنظرة سهم من سهام إبليس.. وخطورتها من خطورة الكلمة التى قد تكون جافة ولكنها تشعل فتنة ورب كلمة لينة تطفئها وتخمدها.

رب كلمة واحدة يتوقف عليها مصير إنسان وسعادة عائلة. وحياة دولة ومستقبل أمة بل وتغيير وجه العالم.

وتأملوا عمر رضى الله عنه بسيفه المشرعَ.. وملامحة الصارمة لا يكاد

يرى.. ثعلبة حتى يحتضنه! متمثلا روح الإسلام فى مواجهة الخطائين بالمودة لا بالسلاح.

وبعد: ولا ننسى أولا: أنه لو كان الستر مسدولا لما كان من ثعلبة ماكان..

وإذا كان من لوم عليه لأنه كرر النظر إلى الحرام.. فهناك من يقاسمه ذلك اللوم.. وهم أهل البيت الذى أطلت منه الفتنة.

وهكذا.. تتحمل أجهزه الإعلام التى تزين الرذيلة إثم ما يترتب على ذلك من إنحراف.. مهدت له.. بل وحضت عليه.

وثانيا: لا ننسى أنه: إذا كانت هذه رحمة الله تعالى بمن عصاه..

فكيف تكون رحمته تعالى بمن أطاعه واتبع هداه؟!!

دور القدوة
فى التقويم

إذا انحرف المسئول الأول عن موقع ما.. فشيمة أتباعه أن ينحرفوا.. لأنه رتع.. فرتعوا.. ومن هنا لا يكون جسورا فى مواجهة الانحراف.

أما إذا كان شريف النفس. نظيف اليد. كان له من المهابة مايفوق قوة القانون وهكذا كان ﷺ: مهيبا جليلا.. فى الوقت الذى تسقط فيه قيادات فرطت فى جنب الله فهانت حتى على نفسها!!

ذكروا أن ملك بولونيا كازمير الثانى كان يقامر شخصا من أشراف مملكته. فخسر الشريف كل ماله. واحتدم غيظا. فلطم الملك على وجهه. تفوه بكلمات غليظة ضدّه. وبطبيعة الحال قبض على الشريف. وسيق إلى المحكمة. فحكمت عليه بقطع رأسه. ثم أرسلت حكمها للملك. للتصديق عليه.

فما كان من الملك إلا أن عفا عن الشريف قائلا: أنا المجرم.. لا هو. كان من واجبى الامتناع عن القمار الذى يذهب بمال آلاف العائلات.

ولم يكتف الملك بهذا العفو فحسب. بل أصدر أمرا بملاحقة كل مقامر إنه لم يستحضر هذا الموقف الخاص ولكنه العلاج الجذرى المانع من تكرر الخطأ وفى قصة ثعلبة.. كان همه الأول: هل علم الرسول بذنبه؟

الرسول: الرائد الذى لا يكذب أهله.. الأسوة الحسنة.. كيف يجرؤ على مواجهته بعدما حدث.. وعليه من الخُلقُ العظيم مهابة تخرس الألسنة وتغمض العيون؟

من أجل ذلك خر ثعلبة مغشيا عليه من فرط إحساسه بالحياء لما سمع صوت رسول الله ﷺ.

القيادة الرحيمة:

ويتطلف معه ﷺ.. فى محاولة للتخفيف من حدة الشعور بالذنب.. دون

جدوى.. فقد ظل الذنب يؤرقه ـ ثم تحول إلى نباح من الألم يسرى فى خلاياه.. ويرشده الرسول ﷺ إلى ما يخرج به من الظلمات إلى النور.. مؤكدا له أن ليس لهذا الإحساس القاسى ما يسوغه.. فإذا كان ذنبه عظيما فعفو الله أعظم..

طبيب القلوب:

وتأمل كيف كانت شحنة الندم كشلال هادر فى نفس «ثعلبة» ولما ظهر ذلك للرسول ﷺ.. لم يشأ أن يثقل عليه بالموعظة.

فليس بالكلام وحده تحيا القلوب.. وإنما سمح له بالرجوع إلى بيته.. فلعل الزمن أن يكون جزءا من العلاج.. عندما تهدأ أعصابه مع الأيام ويكتشف الحقيقة. وحين يزف الرسول الكريم إلى ثعلبة بشرى غفران ذنوبه.. لا يتحمل الرجل شحنة الفرح فيموت!

الذين يمكسون بالدفاتر القديمة:

ثم تتنزل الملائكة لتشترك فى تشييع جنازته.. تكريما... وتعليما.. تكريما للرجل.. وتعليما لهذا الذى قال لى ونحن عائدون من جنازة رجل كان مسرفا على نفسه.. وكأنما كان يلمح بما يلقاه الآن فى قبره جزاء انحرافه.

وقلت له: لعل الملائكة كانت معنا تشيع جنازته.. فاسكت: فلعله خير منك.. ومنى.. وما أكثر الذين يرحلون.. وفى ذاكرتنا من سيرتهم هفوات.. أوهنات. ولكنهم يذهبون برحمة الله إلى جنات عرضها السموات!!

معركتنا مع الشيطان

تمهيد:

ربما نظرت إلى طفل صغير بين يديك.. ثم سرح بك الخيال فيما سوف يكون مستقبله.. ربما يصير فقيرا.. أو غنيا.. سعيد أم شقيا.. كل ذلك جائز.. ولا تملك توثيقه.. لكن الحقيقة المؤكدة أن ذلك الطفل سيموت يوما! وتلك نهاية كل حي.. والتي لا تحتمل النقاش.. ولكن المهم. ما بعد الموت من جنة.. أو نار.. ماذا أعددنا للرحلة الطويلة لنحقق أملنا المزدوج:

الزحزحة عن النار.. والفوز بالجنة.. تلك هي قضيتنا.. ولقد يقول السطحيون: كل.. واشرب.. وعش سعيدا.. متجاهلين استحالة السعادة.. سعادة رجل يخطف اللقمة من فم الجائع.. والشربة من فم الظمآن!

إن السعادة ـ في الدنيا والآخرة ـ ليست بهذه البساطة.. وإنما إذا أردنا أن نصل إليها.. فعلينا أن نهيئ أنفسنا لخوض رحلة المعاناة.. لقد حفت الجنة بالمكارة.. وحفت النار بالشهوات.. وهذا ما أشارت إليه الآية التالية: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم...﴾ الآية.

وإذ يبدو الملحدون على شيء من النعيم.. في الدنيا فإن العبرة بالخواتيم: إن الحق مر.. ولكنه مريء.. وإن الباطل ضعيف.. ولكنه ثقيل وبيء.. وقد يجني المبطل من ورائه متعة.. ولكنها. وعلى المدى الطويل. تصير علة دفينة تسري في بدنه.. أو تدب فيه دبيب السم الناقع في الجسم اللسيع.

المسلم لا يمشي وحده:

يضرب الإنسان في الأرض طلبا للرزق.. والمنزلة.. راجيا حمايته من كل آفة تذهب بهذا الأمل.. وذلك هو القاسم المشترك بين الناس جميعا.. برهم وفاجرهم... ولكن مفرق الطريق بين المسلم والكافر هو: أن الكافر في سفره الطويل يتخذ سندا من الخلق.. فيكون كمن احتاج إلى مأوى.. فلجأ إلى أضعف بيت.. بيت العنكبوت.. لأن روابط الخلق بما فيها: من أنانية.. ولؤم..

أوهن من أن تحمى أحدا.. من أجل ذلك يكون قد أضاع نفسه..

أما المؤمن: فإنه يلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى.. وهو من عنايته فى بيت من الصخر.. عصى على العصبة أولى القوة.. أنه يمشى فى سفره.. ومعه القوة التى لا تضام.. والعين التى لا تنام.

مخاطر على الطريق:

وعلى المؤمن أن يكون على حذر من قطاع الطريق.. ويتمثل ذلك فى:

١ ـ الشيطان.   ٢ ـ والنفس الأمارة..

أما الشيطان: فإنه يحاربك فى معركة شاملة:

يصدر إلى عقلك الشبهات. ويخدر قلبك بالشهوات.. وما أفتكهما من سلاحين:

فالشبهات كما قيل: كالمرض القاتل: ولكن عداوة بطيئة. ولكن الوقاية ممكنة.

وأما الشهوات: فهى كالمرض الذى يضنى ولا يغنى.. ولكن عدواه سريعة.. والتوقى منه صعب.

أى أنه يحاربك بالشهوات.. بالصواريخ التى تدمر العافية فى كيانك.. ثم بالحرب الكيماوية.. التى تسرى فى دمك.. وعلى المدى الطويل.. فكن منه على حذر..

أما النفس الأمارة.. فإنها تثير فيك الشهية لتقبل على الشهوات.. تلذذا بها.. والشبهات تجارة قد تكون رابحة فى أسواق الشطارة والنفاق..

الفرق بين العدوين:

وإذا كانت النفس عدوا.. وكان الشيطان عدوا.. فإن الإسلام يريد لك أن تمحض جهودك لمنازلة الشيطان فى معركة تديرها الحكمة.. ولا يديرها الحماس وحده: فإذا كان الشيطان يحاول أن يكسب رضاء نفسك الأمارة لتكون فى صفة.. ضدك.. فإن الحكمه تفرض عليك أن تتخذه وحده.. عدوا.. ولا تتخذ

نفسك عدوا.. بل واجبك أن تهدهدها.. لتقف إلى جانبك: ليكون الموقف: اثنين.. لواحد.. هو: الشيطان عدوكما المشترك!

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

وقفة تأمل:

عندما ينجح الطبيب في تشخيص العلة.. يكون قد قطع نصف الطريق إلى الشفاء بعون الله سبحانه وتعالى.. فإذا أتبع ذلك بوصف الدواء المناسب.. تم للمريض ما يرجوه من شفاء بإذنه تعالى.. هكذا تقول تجارب الحياة من حولنا..

وهو ما توصى به الآية الكريمة التى تحدد الباب الذى تهب منه الريح.. وهو الشيطان.. ثم تحدد الدواء المعين على التصدى للريح.. حتى نستريح وذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا..﴾.

وتجيء الآية الكريمة على نسق فارد.. يعين المسلم على الفرار من كيد الشيطان.. وصولا إلى الجنة التى هى غاية المراد من رب العباد..

أ ـ إن عداوة الشيطان الرجيم.. مؤكدة..

ب ـ والذى يؤكدها هو الحق سبحانه وتعالى..

وإذن فكون الشيطان عدوا.. حقيقة لا تقبل المناقشة!

جـ ثم إنه عدوكم.. جميعا.. فردا.. فردا.. وبلا استثناء.. فلتكونوا منه على أهبة الاستعداد. ألا وإن أسلحة إبليس.. تختلف فى طبيعتها.. وفى كمها.. وفى كيفها:

١ ـ فهو يحاربنا بفتن الدنيا.. ومباهج الدنيا.. مرئية.. وعاجلة.. أما الجنة فهى غائبة عن عيوننا.. ثم هى فى نفس الوقت آجلة..

وإنما تتأثر النفوس بالمشاهد الذى يدعوها بحضوره لتتذوقه.. ثم هى: مولعة بحب العاجل.

---

(١) فاطر: ٦

٢ ـ ومن الناحية الكمية: فهى كثيرة.. وفيرة.. لا تكاد تفلت من فتنة حتى يورطك فى أخرى.. تناديك.. ومن قريب..

٣ ـ ومن ناحية الكيف فهى متلونة.. متنوعة تحاصرك بألوانها فإذا أنت مشلول الارادة إزاء الفتنة الهاجمة:

يقول سبحانه فى ذلك:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[1].

٤ ـ ثم إن ما ركب فينا من غرائز.. يستغله الشيطان لحسابه.. ليمسكنا من اليد التى تؤلمنا..

أ ـ فالإنسان عجول.. كنود.. كفور.. لحب الخير لشديد:

قليل من النعيم.. يبطره..

قليل من الغم.. ييئسه..

ومن ثم ـ كما قيل بحق ـ يندفع مستجيبا للشيطان.. ظنا منه أن الاستغراق فى الدنيا: متمم لنقصه.. مقو لضعفه.. مسعد لحياته..

ب ـ والإنسان يحب الحياة.. ويعلم الشيطان منه ذلك..

ومن هنا يستغل ذلك الولع بالدنيا لينفذ خطته الرامية إلى إغراقه بما يلبى هذه الحاجة.. إلى الحد الذى تبدو الدنيا فى عينيه.. كالمخدع.. مافيه إلا هذه المرأة الجميلة.. والتى ينسى معها كل شىء!

وهكذا قال أشياخنا كاشفين عن هذا الواقع: ألا يعلم الإنسان أن الموت حق؟

وإذن.. فلماذا لا يستعد له بمخالفة الشيطان؟

والجوابُ: أنه فى فتنته بالدنيا لا يحب.. حتى تصور الموت.. لأن تصوره يعنى أن يستعد له.. وهو لا يريد ذلك.. لأن راحته فى الانحراف.. الذى يمهد

---

(١) آل عمران: ١٤.

له السبيل إلى ما يرضى هواه.. بينما تكاليف الحق ثقيلة.. تحمله على أن يعاكس الموج!

وتنطلق خطة الشيطان من إقناعه بالمعصية.. لماذا؟

لأن المعاصى تشكل سحبا كثيفة داكنة تمنعك من تصور نعيم الجنة.. ومن مضاعفات ذلك ألا تستعد له بالعمل الصالح.. بالإضافة إلى الاستغراق فى نعيم الدنيا.

وهكذا.. وفى ضباب من الغفلة ينطلق الإنسان معصوب العينين فى رحلة التناقض والتمزق:

ذلك بأنه يوقن بأن الدنيا زائلة.. وأن الاستغراق فى نعيمها يفضى به إلى النار.. وأنه فى نفسه ضعيف أمام الشهوات.. ومع هذا.. يريد أن يعيش طفلا مدللا.. كما قيل. يريد كل شىء على مزاجه.. لكن كل شىء لن يكون على مزاجه!

وقد يسمح الشيطان فى نشوة انتصاره أن يتعبد الإنسان.. أن يؤدى شعائره أداء رتيبا منظما.. مادام هو صاحب القرار النهائى..

إن الذى يعنيه: أن يملك.. وأن يحكم.. يعنى يتحكم.. وعلينا أن نعرف ذلك العدو.. ولا يكفى أن نتخذه عدوا.. والآية الكريمة تثير فينا الحماس.. لنكون جبهة واحدة ضده: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا..﴾.

لا يليق برفاق السلاح أن يقاتل بعضهم بعضا.. وإنما عليهم أن يتحدوا فى جبهة واحدة ضد عدو مشترك. هو الشيطان!

وهو الدرس الذى فهمه المتقون وعلى ضوئه يسيرون:

التهوين من أمر الذنب:

يقف المتقون أمام وساوس الشيطان كالطود الأشم لا تنطلى عليهم حيله الماكرة وذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

ولكن معركته الحقيقية مع العامة من المسلمين.. ومن صور هذه المعركة:

التهوين من أمر الذنب.. بعدما يقع: بمعنى محاولة الشيطان إماتة الإحساس بخطر الذنب.. لا سيما إذا كان من الصغائر.. حتى إذا مات ذلك الإحساس.. أو ضعف.. تدحرج المسلم إلى السفح.. ليكون من بعد لعبة فى يديه.

إن الشعور بخطر الكبائر حاضر فى نفس الإنسان لا يغيب.. وهذا ما فطن إليه الشيطان الرجيم.. فركز على الصغائر تهوينا لها.. ومن ثم.. عن طريقها يستدرج الإنسان.. ليسقط بهوايته.. فى هاويته.. هاوية الغفلة التى بها تكون النفس أمارة بالسوء.. وفى غفلة النفس يسقط من الجندى اليقظ سلاحه.. وتكون النتيجة أن يعبث اللص فى بيت نام حارسه!

كيف نتصدى لكيد الشيطان:

حاول المربون إيقاظ الإنسان من غفلته.. بتنشيط النفس اللوامة.. والتى تصير نفسا مطمئنة بدوام ذكر الله تعالى.. والشعور بالتقصير الدائم.. إحياء لمشاعر الافتقار إليه سبحانه.. وتقديرا لنعمه الكبرى علينا.. والتى لا تفى عبادة العمر كله بالوفاء بشكر نعمة واحدة منها.. ويعنى ذلك كله تحقق معنى العبودية واستقراره فى القلب.

يقولون: إن مدار العبودية إلى أمرين: الحب الكامل. والذل التام..ولكل من القاعدتين آثاره فى واقع الإنسان:

فبالحب الكامل يرى المسلم أثر نعمة الله تعالى عليه.. فيشكرها.. فيزيده الله تعالى.. وبالذل التام.. يرى عيب نفسه.. وافتقارها إليه سبحانه.. . فيستجيب الله تعالى لدعائه إذا دعا.. ويقبل توبته إذا تاب. ويظل الإحساس بالذنب دافعا قويا.. يصل بالإنسان إلى أفضل مما كان:

قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب.. فلا يزال نصب عينيه خائفا وجلا. باكيا نادما. مستحييا من ربه، ناكس الرأس بين يديه سبحانه. فيكون ذلك أنفع له من طاعات كثيرة. لما ترتب عليه من هذه الأمور التى كانت بها سعادته وفلاحه. حتى يكون ذلك الذنب سببا فى دخوله الجنة. وربما وصل الأمر كما

تصور العارفون إلى ندم الشيطان الذى يجأر بالشكوى قائلا : ياليتنى لم أدله على ذلك الذنب.

رحلة العودة:

وتتم رحلة العودة إلى الله.. عودة المذنب.. عبر مراحل:

أولا التوبة: وفى هذا يقول المربون:

إن النفس المذنبة تحس بأن راحتها فى الانحراف.. فإذا هبت عليها رياح التوبة.. ندمت.. على ما فعلت.. وبالندم تنغص على النفس راحتها.. وتعكر صفوها.. وعندئذ: تطلب الخلاص.. خروجا من هذه المعاناة..

ولذا كانت التوبة إصلاحا لما مضى.. فهى أمر سهل.. لكنها فى نفس الوقت تعامل مع المستقبل بروح جديدة رشيدة مصممة على المضى فى رحلة الطهر عاقدة العزم على ذلك..

تلك هى المرحلة الصعبة.. والتى تسول لبعض المذنبين.. أن يسوفوا!

وإذا كان للتسويف دوافعه ـ من قبل النفس ـ فله كذلك موانعه:

ومن أسبابه:

أ ـ غلبة الطبع.

ب ـ وسوسة الشيطان.

جـ ـ الثقة بعفو الله تعالى.

د ـ رجاء المغفرة.

ولكن الحق يقول لك: لا داعى للتسويف. فحاول أن تخفف من أثقال معاصيك بالتوبة والظروف مهيأة للعود الحميد.

أ ـ فالذين يسجلون أعمالك: كرام كاتبون..

ب ـ والرئاسة لملك الحسنات.. الذى يسرع بتسجيل عملك الصالح.. ثم يستمهل ملك السيئات ساعات حتى تتوب..

جـ ـ فإن لم تفعل السيئة كتبت لك حسنة. . وإن فعلتها كتبت عليك سيئة واحدة!

د ـ ثم إنك لم تعص ربك عنادا. . وإنما هي: غلبة الهوى:

لقد عصى إبليس ربه. . كما عصاه آدم

ولكن ـ كما يقول المربون: لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب. . ولما علم السيد أن عبده لا يريد بمعصيته مخالفته. . علمه كيف يتوب إليه ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾.

وللوضع النفسي المصاحب للعمل أثره البالغ في تحديد نتيجة ذلك العمل. . ومن هنا قالوا: لأن تضحك وأنت مقر بذنبك. . خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك. . فإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه!

من دواعي التعجيل بالتوبة: من صفات الله تعالى أنه غفار. . وأنه رحيم:

غفار: لمن باشر أسباب التوبة. . ورحيم: بقبوله تعالى لهذه التوبة. . وهذا القبول في ذاته مجموعة من النعم تتقاضاك شكرها:

١ ـ فالله تعالى لم يعاجلك بالعقوبة.

٢ ـ ثم قبل منك توبتك بعد هذه المعاصي.

٣ ـ ومحا ما سلف من سيئاتك.

٤ ـ ثم قبل حسناتك. .

٥ ـ وأعاد المذنب الهارب إلى حماه بعد شروده.

فلم يبق إذن عذر للمسوف. . لا سيما إذا علم أن أشد جنود الشيطان: [سوف. .]. حتى متى يانفس تغترين بالأمل الكذوب. . . . .

يانفس توبي قبل ألا تستطيعي أن تتوبي.

إن الحوادث كالرياح: عليك دائمة الهبوب.

ثانيا: الاستغفار:

سأل واحد من الشباب ابن قدامة قائلا: بم تنصحنى بعد توبتى؟.. استغفر.. أم أقول: لا إله إلا الله.

فأجابه ابن قدامة: لو كان لك ثوب وسخ: تغسله أولا.. أو تكويه؟

فقال الفتى: أغسله.

فقال له ابن قدامة: إذن.. فاستغفر الله أولا!

وكما أن الأرض لا تحيا بالذهب.. وإنما تحيا بالماء.. فكذلك القلوب لا تحيا.. إلا بالاستغفار.. الذى تنعكس بركته رخاء على الفرد وعلى المجتمع وفى القرآن الكريم على ذلك شواهد:

يقول تعالى:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[1].

وينبغى مع الاستغفار الدائم.. أن تكون التوبة أيضا دائمة على نحو يصير به الإنسان عصيا على الرجوع إلى الذنب.. كارها له كما يكره أن يقذف فى النار.

وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[2].

ضحايا الغفلة:

هذه هى الحقيقة.. ولكن.. ما أقل الذين يلتزمون بها!

فقد يتعرض إنسان لموقف عصيب.. فيهرع إلى ربه مفزعا.. يجأر بالشكوى.. وبعد أن ينحسر الخطر.. يعود لما نهى عنه.. ناكثا عهده مع ربه..

ولئن كان المشركون منطقيين مع أنفسهم حين يعيشون هذا الغدر وذلك العناد.. فكيف بالمسلم إذن؟

---

(١) نوح: ١٠، ١١.　　(٢) هود: ٥٢.

ونذكر هنا قصة هذه الراقصة التي أصيبت فى عمودها الفقرى ولما ذهبت أسرتها لتعالجها بالخارج.. لم تنس الأسرة أن تصحب معها أشرطة تسجل رقصاتها. حتى يحذر الطبيب المعالج فيتعامل معها بمنتهى الدقة.. لتظل قادرة على الرقص فى المستقبل!

وكان الظن أن تتخذ الأسرة من ذلك الحادث درسا.. يعيد إليها رشدها الغائب.. ولئن جاز أن تعيش هذه المرأة أحلامها المقبلة..

فلم يكن يليق بالأسرة إلا أن تكون دليلها.. على طريق العودة إلى الله تعالى.. ومن الطريف هنا.. أن شابا عربيا أرسل إلى نجيب محفوظ غاضبا لأن نجيب محفوظ حاول فى روايته أولاد حارتنا هدم الإسلام..

وكانت المفاجأة فى نهاية الخطابة هى سؤاله عن صحة الراقصة المنكوبة!!

ولنقلب هذه الصفحة.. ولنخرج من غرفة الراقصة.. والتى زينت حيطانها بصور من رقصاتها..

لنخرج من هذا الجو الخانق.. إلى حيث الجو الطليق.. جو الطهر والنقاء.. والشفاء من كل داء.

الرد الالهى:

ويجىء الرد الإلهى من الوسط الفنى نفسه.. ولا يهز الشجرة إلا فرع منها.. ولنستمع إلى واحدة من الفنانات.. التائبات.. العائدات إلى الله تعالى.. ومما يلفت النظر أنها تركت مجال اللهو.. وهى في قمة تفوقها كما يقولون وكانت كل الظروف حولها توحى باستمرارها فى الطريق المعوج.. ولكن.. حدثت المفاجأة.. وعاد العبد الآبق إلى سيده:

ذكرت مجلة الوعى الإسلامى [1] نص الموقف على لسان محررها:

فى البداية كانت العمرة: أجابت على سؤالى عن السبب الذى جعلها تغير طريقها وتصورها للحياة بأنها لم تغير طريقها ولكنها عدلته.. فقد كان معوجا ثم

---

(١) ذو القعدة: ١٤١٤.

آب إلى الصراط للمستقيم.. والبداية كانت فى رحاب الله تعالى أمام بيته الحرام.. كانت فى شهر ديسمبر (كانون الأول) أختار فى باريس أحدث الملابس الشتوية من أشهر بيوت الأزياء هناك.. وشىء فى نفسى يدفعنى لزيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة وهى المرة الأولى التى أحس بها هذا الإحساس.. وكان إحساسا ملحا يتحرك داخل نفسى بإصرار.. وشعرت أن لا فكاك لى عنه.. لم تستطع كل بلاد الدنيا التى زرتها مع زوجى أن تصرفنى عنه.. وسياحة المؤمن الحج والعمرة.. صحيح كنت أصلى وأقرأ القرآن منذ فترة.. ولكنها كانت عبادة مشوبة بالجهل بعيدة عن التعمق لا ترتبط بالعلم الشرعى ولا العمل المشروع.. طوال سنتين كنت أعبد الله وأعصيه فى وقت واحد أصلى وأزكى وفى نفس الوقت أتبرج وأبرز مفاتنى أمام أضواء كاميرات التصوير.. مع أن زوجى مسلم وغيور.. ووالدى رجل متدين.. كنت أصلى ولكن إن فاتنى فرض لا أنزعج.. وكثيرا ماكنت أجمع بين الصلوات.. وكنت أقرأ القرآن ولكن لا أفهم منه كلمة واحدة.. فأنا خريجة مدارس فرنسية.. ولغتى العربية كانت ضعيفة جدا. وربما كنت أقرأ شيئا من القرآن خلال العام كله قراءة بعيدة عن التدبر وفهم معناه وأوامره ونواهيه.. وما زال السؤال عن أسباب هدايتى يتردد فى ذهنى وكثيرا ما أعود به إلى صلة الرحم.. فقد كنا (أنا وزوجى) نحرص على قضاء أكثر أوقات فراغنا مع الأهل.. وكنا كلما تحادثنا عن أوضاعنا اكتشفنا أن آراءنا واحدة.. وكان والدى يحرص على أداء الحج والعمرة.. ولكن المجتمع ـ بشكل عام ـ يعيش حالة تعتيم دينى.. لا تعين الفرد على الالتزام التزاما كاملا أو شبه كامل.. ولطالما أصابنى الضجر والضيق، وكم أحببت أن أعبر عما فى نفسى، وكلما تمعنت فى أمور المسلمين وجدت ما يمرون به أعظم واجل مما أمر به، فتهون كل مشاكلى أمام ما أراده وأسمعه عن واقع عالمنا الإسلامى..

ولهداية زوجى أثر: قدر الله أن يسافر زوجى حسن لأداء العمرة بصحبة والدى، بينما بقيت للاهتمام بدراسة الأولاد ومتابعة تحصيلهم العلمى، وعاد بصورة غير التى ذهب بها، لقد تبدل كثيرا، وأخبرنى والدى أن حسن بكى بكاء كثيرا فى الحرم، وقد ختم القرآن الكريم كله ونحن الذين لم نتمكن من قبل أن نقرأ إلا شيئا يسيرا خلال العام كله.

وفى الصيف التالى قمنا برحلة إلى (النمسا) وعدنا منها بمشروع (عمرة) وبالفعل حضرت الجلاليب البيضاء، وفى الطائرة إلى الديار المقدسة وزعوا علينا كتيبا صغيرا فيه بعض التوجيهات والتعليمات المتعلقة بالمناسك، ومن جملتها استحباب ختم القرآن، وبدأت فى القراءة واجتهدت فيها فى الحرم، وكان من معنا من رفاق الطريق يسألنى عن (الحجاب) فأتحجج بزوجى وأن الأمر متوقف على موافقته.

وما زلت أذكر ذلك اليوم الذى كنت فيه فى الحرم المدنى، وجهى للقبلة وظهرى للقبر الشريف، وقد مرت بى آية (لا أذكرها الآن) أثرت فى حتى سالت دمعة على خدى، وإذا بفتاة تلبس الخمار تضرب برفق على كتفى وتسألنى: لقد تغيرت وتبدلت، وأنا فتاة من الكويت، أقيم فى الدانمرك ودعتنى لزيارة المركز الإسلامى هناك والاطلاع على أحوال الجالية والدعوة الإسلامية بين الدانمركيين أنفسهم..

وفى المدينة المنورة التقيت بخالى وزوجته، واهتما بى كثيرا، ودعا لى خالى بالهداية والثبات، وقبيل مغادرتى ذهبت لزيارة النبى ﷺ وبصحبتى إحدى السيدات ووقفت أمام الحجرة أدعو وأدعو.. وشعرت وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى نظرة أصابتنى برعشة، ووجدتنى أرتجف وأردد مع نشيج بكائى: (ياحبيبى يارسول الله) وحاولت صاحبتى إيقاظى مما كنت فيه، ثم وقعت فجأة بلا وعى..

ولما عدنا إلى حيث الأهل أخبرت صاحبتى والدى بما وقع، ثم توجهنا إلى الحرم بمكة المكرمة، واجتهدت فيه بالتلاوة، وأردت أن أتم ختمتى للقرآن، وهناك التقيت مرة أخرى بالأخت الكويتية (أروى) وطلبت منى أن أقرأ القرآن لتسمع منى، ووجهت لى بعض النصائح، وأنشدت أنشودة خاصة بالحجاب وطلبت من الأخت (أروى) أن تكتب لى كلمات أنشودتها، ومطلعها: (فليقولوا عن حجابى لا وربى لا أبالى) وتعلقت نفسى بالحجاب وعزمت على ارتدائه من شغاف قلبى، الا أن بعض من معى نصحونى بالتريث..

ومرت الأيام ونحن فى رحاب الله، وختمت القرآن الكريم لأول مرة فى حياتى، وقد عشت معه لحظة بلحظة، وأحسست بالعلاقة الوثيقة بينى وبينه، ولما

عدت إلى الفندق شعرت وكأن جبلا يربض فوق صدرى، وكأن ذنوب البشر كلهم فوق عاتقى، وعزفت نفسى عن الطعام والشراب، وجفانى النوم، ووجدتنى أصرخ من شدة الضيق، وهرع إلى والدى يستفسر عما أصابنى، وطلبت منه أن نعود إلى الحرم، وهناك وجدت طريقى مفتوحا إلى الحجر الأسود، وشعرت أن فى فمى كلاما كثيرا أريد أن أقوله، وفتح الله على ودعوت من أعماق قلبى، وشعرت أن كل شىء إلى زوال، ولم أدعو إلا بثباتى وقوة إيمانى وإيمان أولادى وأهلى، وشعرت وكأن الملائكة تحلق فى المكان، وكنت أبكى بخشوع، وأنا أردد الفاتحة خلف مقام إبراهيم عليه السلام وكأننى اقرأها للمرة الأولى فى حياتى، وخرجت من الحرم بعزيمة وإرادة، وكان قرارى الالتزام بالحجاب واعتزال الفن. .

حرب على أكثر من جبهة:

وبسؤالى عما واجهته من المنتجين وغيرهم ممن لهم علاقة بإنتاجها الفنى السابق، وقد سمعنا أن البعض يحاول الإفراج عن أعمال فنية سابقة كان الرقيب قد أوقف عرضها، قالت: حرب الشيطان على الإنسان المؤمن لا تتوقف، وحسبى الله ونعم الوكيل، وأناشد كل ذى غيرة وضمير أن يساعدنى على توبتى النصوح وأن يحترم قرارى فى الاعتزال، فتلك أعمال وأيام انسلخت منها، وأسأل الله تعالى أن يغفر لى ويسامحنى عما قمت به، وهو نعم المولى ونعم النصير. .

هل يمكن الجمع بين الالتزام والتمثيل:

وفى معرض أجابتها عن سؤال يتعلق بفك الارتباط ما بين التوبة والاعتزال، لا سيما وللتمثيل دور خطير ومهم فى عالم اليوم، فكم من مسرحية أو فيلم أثر فى نفس المشاهد وساهم فى توجيهه بشكل معين، فهل من إمكانية لإقامة فن ملتزم، كما يقوم زوجها الفنان حسن يوسف، كان جوابها:

لا يمكن الجمع بين التزام المرأة المسلمة بأوامر الله وبين الفن، فالتمثيل بشكل خاص يحتاج إلى أداء معين، يتعلق بالصوت والصورة والحركة، ويستحيل تحقيق غض البصر فيه، وهو أمر ندرك جميعا أهميته ومشروعية الالتزام به ويختلف وضع الرجل عن وضع المرأة فى هذا المسألة، وطالما يستطيع الرجل أن يقوم بهذا الدور فلاحاجة للمرأة بأن تتورط فيها ضرره أكثر من نفعه. .

دروس للمعجبات بالفن ونجوم التمثيل.

تركت الداعية شمس البارودى وفى أعماق نفسى شعور صادق بعظمة الله تعالى وفضله فى هداية الجادين على درب التوبة والإنابة، فسبحان مبدل الأحوال، ولقد أكبرت فى هذه المرأة إرادة الخير وعزيمة الإقلاع عما حرم الله، وجميل التوكل عليه، تركتها وقد أحاطت بها الأخوات كل تسأل وتستخير، وهى تجيب بابتسامة وكلمة طيبة، جزاها الله وأمثالها من الفنانات كل خير، ولعل فى قصصهن عبرة لأخواتنا المبهورات بالنجومية والنجوم والله الهادى إلى سواء السبيل.

حلاوة الإيمان:

كان عصام بهيج من أشهر لاعبى الجناح الأيمن فى كرة القدم، وكان أبرز نجوم الزمالك ومصر فى فترة الخمسينات.

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون عن عصام بهيج حياته الخاصة التى مارس فيها مختلف أنواع الفساد..

ثم كما يحدث أثناء الزلازل من انقسام الأرض المستوية وانفصال بعض الطبقات الأرضية كذلك حدث لعصام بهيج الذى انفصل تماما عن حياته السابقة وأصبح يمارس حياة لاتفوته فيها صلاة، ولا تمر به سنة لايؤدى فيها فريضة الحج، ولا التزام تعاليم الحق..

ولم يكن لذلك سر غير أن الله شاء له أن يسافر للعمل فى السعودية، وهناك عرف طريقه إلى زيارة مسجد أشرف الخلق. ومن منهل هذه الينابيع ارتوى عصام بهيج بالإيمان وهداه الله والله يهدى من يشاء.

هل لهذا علاقة بشمس البارودى؟

لقد كانت إحدى نجوم الفن والتمثيل.. وفى عز شبابها وجمالها وإقبال المنتجين والمخرجين عليها للتعاقد معها أعلنت فجاة اعتزالها الفن وبعد الفساتين العارية أو النصف كم أصبحت شمس البارودى لا تظهر غير محجبة.

كانت قد أدت العمرة منذ ثلاث سنوات، وهناك فى رحاب أقدس الأماكن

وإلى جوار أعظم الخلق اكتشفت شمس طريقها وعادت لتعيش حياتها الجديدة.. لقد تركت نور الفن إلى نور الإيمان، واستوديو التمثيل إلى محراب الصلاة، وحب الجماهير إلى حب الله.

وازداد احترامى لها عندما قرأت إعلانا دفعت ثمنه من مالها تعلن فيه أن الأفلام التى تعرض لها حاليا أو مستقبلا كلها أفلام قديمة تم تصويرها منذ سنوات بعيدة. كما تعلن أنها اعتزلت الفن نهائيا منذ سنة ١٩٨٤ بعد أدائها العمرة.

لقد رفضت شمس استقبال الصحفيين وأغلقت باب بيتها على نفسها.. سعيدة بحياتها الجديدة.

كثيرون يتصورن أنها فقدت الاستمتاع بالحياة، لأنهم لم يجربوا حلاوة الإيمان.

من المواقف العملية:

كان الفتى على شىء من تقوى الله تعالى.. وكان من دلائل تقواه أنه: لم يرتكب كبيرة!

وأحسست بمشاعر الزهو على صفحة وجهه.. لكن الإحساس بالزهو تحول إلى غرور.. سول له الشعور أنه من معدن آخر.. يعز نظيره.. وانتهى به الأمر أخيرا.. إلى الاستكبار.. وما أعظم المصيبة عندما ينتهى التدين بفتى إلى رذيلة الكبر التى تكنس كل فضائله.. بل تحلقها حلقا.. لأنها تعنى أنه وحده فى الجنة.. والجماهير المخدوعة فى نظره.. مصيرها إلى النار!!

وفجأة فتحت المذياع.. هروبا من هذا الواقع المر إلى أن تحين فرصة الدعوة لأضرب والحديد ساخن!!

وكان من تدبير الله تعالى أن كان المتحدث يعالج نفس الموقف.. الذى أنقله الآن من الذاكرة مع إضافات فرضها الموقف الصعب أقف بها مع زميل غيور.. لنتعاون على إصلاح ما أفسده الكبر!

روى المتحدث قوله ﷺ: **«إياكم ومحقرات الذنوب»**:

كقوم نزلوا فى بطن واد. فجاء ذا بعود. وجاء ذا بعود. حتى انضجوا خبزتهم[(١)].

تعقيب:

الحديث الشريف هنا موجه أساسا لناس من المتقين الذين قد يزين لهم الشيطان أنهم بلغوا من التقوى قمتها.. وهم كعثمان رضى الله عنه بعد أن جهز جيش العسرة.. فلا عليهم ما فعلوا من بعد!؟

إنه تحذير شديد اللهجة.. يحميهم من السقوط التدريجى.. من قبل الشيطان الذى يئس أن يعبد غير الله فى الأرض.. ولكنه رضى بمحقرات الذنوب.. والتى بها يسحب البساط من تحت أرجلهم.. وهم لا يشعرون!!

قليل النار غير قليل:

وصحيح أنه ذنب صغير.. وقد يغريك صغره بالتمادى فيه.. ما دمت مجتنبا الكبائر.. ولكن الحديث الشريف ينبه المتساهل هنا:

أن ذنبك واحد من ملايين الذنوب الصغيرة.. والمضروبة فى أمثالها.. ليجىء حاصل الجمع رقما خياليا.. فلكيا !.. تماما كهؤلاء المسافرين الذين أتى كل واحد منهم بعود بدا بين أصابعه ضئيلا. ولكنه مضموما إلى أمثاله صار نارا تلظى.. أنضجت الطعام!

وإذن فالانحراف اليسير منك.. ومن غيرك سيكون على مدى الأيام عينا آسنة تعكر مجرى المجتمع كله.. وليس صحيحا كما تزعم أنها تضرك وحدك..

ثم إن الذنب اليسير من الناحية النفسية سوف يخط فى الأعصاب مجرى.. ليضاف إلى عاداتك التى تستفحل.. لتكون لك طبيعة ثانية.. وعلى فرض أنه يسير.. وإنك أحسن من غيرك.. أو أحسن منك فى أيام زمان.. فعليك أن تذكر : من عصيت؟! إن من عصيته عظيم.. سبحانه وتعالى.. وسوف يحاسبك على الصغيرة والكبيرة.. ووراءك منه تعالى غريم مقيم يطالبك بسداد الدين..

---

(١) رواه أحمد وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح إسناده حسن.

كما جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها «إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله مطالبا»[1].

لقد سجلت فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..

عدوى الانحراف:

إن الانحراف.. ينتقل كالمرض بالعدوى لا سيما إلى صغار يرونك.. فيقلدونك لتتحمل إلى يوم القيامة وزر طابور طويل مهدت له طريق الشر تمهيدا. وقد يستبد بك الإحساس بسعة رحمة الله تعالى وجميل عفوه.. وهذا صحيح.. ولكن مع إيقاف التنفيذ! فالله تعالى عفو.. حليم ستار.. لكنه كذلك منتقم جبار..

وإذا كان من كرمه تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات.. فذلك ذكرى للذاكرين.. الذين يعلمون أن ذلك راجع إلى مامضى من سيئاتك بالأمس. والتى تمحوها بحسناتك اليوم.. أما المستقبل.. فلابد أن يوافيك وأنت أشد إصرار على محو السيئات بالحسنات لتصير صفحة عمرك بيضاء من غير سوء..

أما أن تواصل ممارسة هوايتك فى ارتكاب الصغائر استهانة بها.. فسوف تتسع دائرتها.. ويتفاقم خطرها.. ويصعب على الحسنات الضئيلة أن تمحو السيئات الثقيلة!

واجب الدعاة:

وما أكثر الخطائين الهاربين من سيدهم.. بالصغائر.. والذين هم منها فى غمرة ساهون..

وعلى الدعاة أن يسارعوا إلى اللحاق بهم.. وهم فى منطقة الصغائر.. قبل أن تهوى بهم شياطينهم فى منطقة الكبائر.. والتى إن تورطوا فى متاهاتها.. فقد لا يعودون.. وإن عادوا.. فسوف يعودون مثخنين بجراح المعاناة.. التى يفرض علينا التعاون على البر أن نتلافاها.. بالتذكير...

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[2]

---

(١) صححه ابن حبان.

(٢) فاطر :٦.

من إنسانيات الإسلام

عن أبى هريرة قال: أتى النبىَّ ﷺ رجل فقال: هلكت.

قال: «وما أهلكك؟» قال: وقعت على امرأتى فى رمضان.

فقال النبى ﷺ: «أعتق رقبة».

قال: لا أجد. وفى رواية: «هل تجد رقبة تعتقها؟»

قال: «صم شهرين متتابعين؟» قال: لا أطيق.

قال: «أطعم ستين مسكينا». قال: لا أجد.

قال: «اجلس». فجلس.

فبينما هوكذلك إذا أُتى بِمكتِلٍ يُدْعى العَرَق.

فقال: «اذهب فتصدق به».

قال: يارسول الله! والذى بعثك بالحق ما بين لا بتيها أهل بيت أحوج إليه منا.

قال: «انطلق فأطعمه عيالك»[١].

وفى رواية البخارى[٢]: [. . فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه. .].

وفى رواية ابن حبان: «خذه واستغفر به».

مدخل

يقولون: ليت الذنوب إذا تخلت خلت. . ليتها وقد تخلت عنك بعد أن قضيت بها وطرا. . ليتها أن تمضى فى غيابات الماضى لتكون نسيا منسيا. . لكنها تمضى بعد أن تكون قد فجرت فى قلبك بحرا من الندم لا تستمتع معه بمعنى الحياة!

وفى اللحظة التى تزول فيها متعةُ حرام خدَّرتك يوما. . كأن متعة لم تكن. .

---

(١) ابن ماجه ـ كتاب الصيام.

(٢) فتح البارى باب الصيام.

ترى الطائع من آثار الطاعة فى ظل ظليل.. ليس لك إلى مثله من سبيل.

ولكن كيف يحدث الذنب؟

يقول ابن الجوزى: المؤمن لا يبالغ فى الذنوب.. وإنما يقوى الهوى. وتتوقد نيران الشهوة.. فينحدر..

ونتساءل: إلى أى حد يكون هذا الانحدار ومتى؟

يجيب ابن الجوزى قائلا:. والسبب فى هذه الأحوال:

أن الإيمان على حسب قوته: فتارة يردها عند الهم.. وتارة يضعف.. فيردها عند العزم.. وتارة عن بعض الفعل.. فإذا غلبت الغفلة.. ووافع الذنب.. فتر الطبع.. فنهض الإيمان للعمل.. فينغص بالندم أضعاف ما التذ[1].

وإذا كانوا يقولون: راحة الجسم فى قلة الطعام.. وراحة اللسان فى قلة الكلام.. فإن راحة النفس فى ترك الآثام!

فبسبب من الآثام قد يحرم الله على العاصى.. الطيبات تحريما كونيا.. لا شرعيا حين يصيبه بمرض عضال يمنعه من الطعام الحلال..

أما من أطاع: فإن روحه تلج فى الملكوت العلوى.. ثم تعود كما يقولون.. بطرائف الحكمة.. حتى ولو كان أميا..

ذلك بأنه حمَّل نفسه من الطاعات ما تكره.. فتنقاد له.. وهى تبكى.. وبعد ذلك: يسوقها وهى تضحك.. بما صبرت.. وأولئك الناجون من حسرة الفوت.. وسكرة الموت!

وهكذا: من آثر الدنيا فقد طاش... ومن آثر طاعته تعالى فقد عاش!

والأمم ـ بهذا المقياس ـ كأفراد الناس.. .لها أعمار.. متى حلت.. ماتت.. وذلك حين تعصى ولاتطيع.. حين لا تنسجم مع الكون المسبح لخالقه سبحانه وتعالى.. فتفقد عندئذ صلاحية الحياة.. وذلك بسوء اختيارها..

تماما كحبة القمح: الحبة.. التى ضاع لبها.. كيف يكون لها ساق؟.. ومن

---

(١) صيد الخاطر: ١٤٩.

أين تأتيها السنبلة؟!

وهذه خواطر تسبح فى وعينا.. ونحن نتأمل موقف هذا الرجل وما انتهى إليه!.. ثم ما خلفه من دروس نحاول لفت الأنظار إليها..

فمن هو الرجل؟ وماذا فعل؟ وكيف تصرف؟ وعلى أى نحو كان العلاج؟

أما الرجل: فهو من الناحية الاجتماعية سيد فى بيته.. بلا منازع.. بدليل هذا القرار الخطير والذى فرضه على زوجه التى لم تكن تملك عنه حولا؟!

وكان من الممكن أن تتأبى مستحضرة عواقب هذا العصيان.. وفى شهر رمضان؟!

أما من الناحية الإيمانية: فإيمانه نظريا على غاية ما تكون القوة.. بدليل هذا الندم الجارف والذى ملك عليه أقطار نفسه.. حتى رضى لها أن تقف هذا الموقف الحريج بين يدى رسول الله.. وعلى مرأى ومسمع من الصحابة. ونقطة الضعف فيه أن إرادته.. ليست على مستوى إيمانه:

لقد انطلقت نفسه الأمارة.. وضعفت الإرادة عن أن تتصدى لها.. حتى تخطت النزوة حاجز الهم.. ثم حاجز العزيمة.. ثم وقعت فى المحظور أخيرا.. هكذا بلا مقاومة تذكر!

لكنها على أى حال كانت المعصية الطارئة.. الغريبة.. التى تقتحم على المتقى حياته الصافية فإذا هو على ما تقول الآية الكريمة:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

لقد مسه االشيطان.. وها هو ذا يصحو من غفلته على الواقع الفاجع الذى صار إليه.. ولكنها كبوة الجواد.. ونبوة السيف.. الجواد الذى لم تكن مشكلته العلم.. فهو يعلم سوء ما اقترف..

ولكن مشكلته: ضعف الإرادة التى استرخت حتى صار إلى هذا الهوان..

وهو هوان.. من شأن اليأس أن ينشر فيه أعلامه السود.. لكنه لم ييأس.. وتلك أولى تباشير الفجر الجديد.. ويدلك على هذا: سرعة ذهابه للرسول

ﷺ . . على ما فى الاعتراف على الملأ من حرج .

وهكذا المؤمن . . دائما إذا نزغه من الشيطان نزغ كان كما يقول ابن الجوزى :

لا ينال لذة المعاصى إلا سكران بالغفلة .

فأما المؤمن: فإنه لا يلتذ . . لأنه عند التذاذه . يقف بإزائه علمه بالتحريم . وحذر العقوبة .

فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهى ـ سبحانه ـ فيتنغص عليه فى حال التذاذه . . . . وماهى إلا لحظة فإذا غريمه : ندم ملازم . وبكاء متواصل . وأسف على ما كان من طول الزمان . حتى أنه لوتيقن العفو . وقف بإزائه حذر العقاب .

فأف للذنوب:

ما أقبح آثارها . وما أسوأ أخبارها . ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة . . . أ . هـ [1] .

١ ـ وهذا واحد من الصحابة مسه طائف من الشيطان في لحظة من لحظات الضعف الإنسانى . . فماذا فعل؟ لقد وقف مع نفسه موقف المحاسب المدقق .

ثم تحمل مسئولية الذنب بشجاعة . . وها وهو ذا يعترف به . وبين يدى رسول الله ﷺ . وعلى الملأ .

لقد رأى من عادة الناس ـ كما أشار العلماء : رأى أن من عثر فى الطريق فى مطر مثلا . . فإنه يلتفت إلى سبب هذا العثار . ثم ينظر إليه .

إنه ليحذر من مثله إن جاز عليه مرة أخرى . أو لينظر مع احترازه وفهمه كيف فاته التحرز من مثل هذا؟ وهكذا العاصى الذى صحا على وخز ضميره قائلا :

كيف لا أراجع نفسى للوقوف على سبب معصيتى مع شدة احترازى . . ثم كيف غرك ـ يانفسى ـ زخرف تعلم بعقلك باطنه . . وترى بعين فكرك مآله؟!

كيف آثرت فانيا على باق .

---

(١) صيد الخاطر: ١٤٩ .

آه.. لقد اشتريت بما بعت أحمال ندم لا يقلها ظهر... وتنكيس رأس أمسى بعيد الرفع.. ودموع حزن على قبح فعل.. ما لمددها انقطاع.

٢ ـ وكان ذلك الرجل على علم بسنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى وهو ما أشار إليه ابن الجوزى بقوله:

الجزاء بالمرصاد إن كانت حسنة. أو كانت سيئة.. ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح. وربما جاءت العقوبة بعد مدة.

وقلَّ من فعل ذنبا إلا وقيل عليه. قال عز وجل: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾[1].

وهنا آدم عليه السلام: أكل لقمة فقد عرفتم ماجرى عليه.

٣ ـ ولاحظ شدة حساسية الرجل بفداحة ما صنع. والتى دفعته إلى رفع القضية إلى رسول الله ﷺ ثم قارن هذا الحس الإيمانى بالحس اليهودى الغليظ والذى فعل اليهود به ما فعلوا إلى حد أنهم كانوا يقتلون فى اليوم الواحد سبعين نبيا.. ثم يأتى المساء وأسواقهم قائمة كأن شيئا لم يكن!

٤ ـ ثم هى مرتبة من الحياء من صنع الإيمان.. تشكل حارسا يقظا يراقب ويحاسب.

وإذا كانوا يقولون. إن العلم قرين العقل لا يفترقان.

فإنا نقول: والحياء قرين الإيمان لا يفترقان!!

ولاتنس كيف كان دقيقا فى تعبيره عن لحظة ضعفه لما قال: وقعت على امرأتى. إنه الوقوع.. المفاجئ.. والذى حدث فى غيبة الوعى المستنير.. وبلا مقدمات.

٥ ـ ولك أن تتصور ما يمكن أن يفعله الضمير الصاحى بصاحبه وكيف يسوق المرء نفسه إلى ساحة القصاص بمحض اختياره.. ثم تصور مجتمعا أفراده على هذا المستوى لتجد نفسك أمام مجتمع مثالى.

---

(١) النساء: ١٢٣.

وإذا حدث فى بعض الأمم أن النظام لم يجرؤ على معاقبة لاعب كرة دخل لجنة الامتحان بالقوة.. فإن الأمر على عكس ذلك تماما عندما يكون الحكم للإسلام القادر على إنشاء محكمة ذاتية داخل الفرد تناقشه الحساب.

وهذا العاصى العائد من المتقين.

ومن خصائص المتقى أنه أواب حفيظ.

أواب يعنى:

أ ـ يذنب كثيرا. ب ـ لكنه يعود. جـ ـ ويعود سريعا.

ثم هو حفيظ.

أ ـ يحفظ العهد.. فلا ينبذه.

ب ـ ثم يحافظ عليه بعد ذلك ليستمر.

والمعصية وإن هبطت به إلى درك الفاحشة.. لكنها لم تفقده البصيرة الكاشفة: وكما أن عين رأسه تميز بين الليل والنهار.. والألوان..

فإن بصيرته تتميز بين الهدى والضلال.. والحق والباطل. وإذا غبش الهوى رؤيتها يوما.. فإنه يعود إلى الله تعالى من قريب.

وهذا يعنى أن الذنب فى حياته ليس أصيلا.. وإنما هو أمر طارئ.. سحابة صيف عن قريب تقشع..

حكمة الرسول ﷺ:

هذا هو الجواد الذى كبا.. أو السيف الذى نبا.. ثم جاءت الفكرة بعد السكرة.. وصحا النائم يوما.. على صوت ضميره.. فماذا فعل الداعية المربى؟

١ ـ لقد علم الداعية بما قرره القرآن الكريم من خصائص الطبع الإنسانى الجانح به أحيانا إلى ارتكاب المعاصى من مثل قوله تعالى: ﴿**هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم..**﴾. فللبيئة.. وللوراثة معا مضاعفاتهما.

٢ ـ ومع هذا فلابد من الجزاء العادل.. الجزاء الذى يقوم العاصى ولا

يحطمه.. فقد يكون العاصى محبا لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وفرق كبير بين عاص سادر فى هواه على حل شعره. وعاص يكاد أن تذهب نفسه حسرات على ما فعل. بل ربما بكى.. وبحرقة.. كلما مر بمكان عصى الله تعالى فيه.

ومن أجل ذلك.. ولأن الضمير صحا فعلا.. وبدأ يسير بالتائب فى الاتجاه الصحيح.. فإن المربى هنا يجد نفسه أمام رجل وجل خائف من عذاب ربه. والقلب الصافى تحركه أدنى مخافة.

٣ ـ ولقد بدت رحمة الإسلام ممثلة فى رسول الله ﷺ حين بدأ يتدرج مع الرجل.. من عتق الرقبة.. إلى صيام ستين يوما.. إلى إطعام ستين مسكينا.

فلما ضاقت إمكانات الرجل الجسدية والمالية عن الوفاء بها.. لم يزده المربى عذابا بتكليفه بما لا يستطيع لماذا؟

لقد صحا ضمير الرجل صحوة أحس معها بحجم الذنب.. ثم ماتفجر فى كيانه من ندم.. وما ذرف من دموع غسلت هذه اللحظة بكل أوضارها.

أى أن غاية التربية قد تحققت.. فماذا يبقى بعد ذلك؟

يبقى أن نمسك على كيان الرجل قبل أن يتحطم بين شقى الرحى.. عذاب من الداخل وعذاب من الخارج!

٤ ـ وينتهى الموقف بهذه الدعابة التى أضحكت سن الرسول ﷺ.

الدعابة التى لا بقاء معها لعقدة الذنب القاتلة.. تلك العقدة التى ما كان لها أن تعشش فى قلب رجل صحا ضميره يوما.. فلاقى من أمته ما أثلج صدره وألهج لسانه بالثناء.. الثناء: على رائد لم يكذب أهله.. وكان له من رأفته ورحمته جناحان حلق بهما الطائر فى أجواء الطهر.. مرة أخرى.. ولم يبق الموقف فى ذاكرة الجيران مسلاة يتندرون بها..

وإنما صار درسا يؤكد إنسانية الإسلام... ثم إنسانية الرسول ﷺ.. الذى لم يكن فى حكمه حرفيا يستعبده.. نص المادة.. ولكنه تصرف بروح القانون.. التى تهذب.. ولا تعذب.. وتتودد.. ولا تتهدد!! وحين تتهلل أساريره بالبسمة فى وجه المذنب.. فإنها ضوء الصباح ينسخ ظلمة الليل البهيم..

أما بعد:

فإن ابتسامة الرسول الله، . . لدليل على الطريق بين يدى الشامتين فى العصاة من المؤمنين. . والذين تشغلهم عيوب الناس عن التفكر فى عيوبهم . .

وفى درس من دروسه ﷺ . . يعلم النهازين للفرص . . المتلمسين للأبرياء العيب . . يعلمهم: كيف يستبشر المسلم . . محسنا ظنه بأخيه المسلم . . سعيدا أن زالت عنه غشاوة الاتهام:

دخل ﷺ البيت يوما . . وزيد بن حارثه وابنه أسامه مضطجعان . . فدخل «قائف» فقال:

إن هذه الأقدام بعضها من بعض.

لقد كان اختلاف لون البشرة بين الوالد «زيد» وولده «أسامة» رضى الله عنهما مثيرا لتساؤل مريب . . قطعه ذلك القائف العارف . .

وكان سرور رسول الله ﷺ عظيما . . إلى الحد الذى حمله على الأسراع بإخبار عائشة رضى الله عنها . . جاعلا من براءة المسلم عيدا سعيدا.

ضمائر الأحرار

عن سلمه بن صخر البياضى رضى الله عنه قال: كنت امرءا أصيب من النساء مالا يصيب غيرى. فلما دخل شهر رمضان. خفت أن أصيب من امرأتى شيئا يتابع بى حتى أصبح. فظاهرت منها. حتى ينسلخ شهر رمضان.

فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ تكشف لى منها شىء. فلم ألبث أن نزوت عليها.

فلما أصبحت خرجت إلى قومى فأخبرتهم الخبر وقلت امشوا معى إلى رسول الله ﷺ قالوا: لا والله لا نفعل: نتخوف أن ينزل فينا قرآن. أو يقول فينا رسول الله مقالة يبقى علينا عارها. ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك.

قال: فانطلقت إلى النبى ﷺ فأخبرته خبرى.

فقال ﷺ: «أنت بذاك يا سلمة؟» قلت: أنا بذاك.

قال: «أنت بذاك؟» قلت: أنا بذاك؟ قال «أنت بذاك»: قلت: أنا بذاك: وها أنذا صابر لأمر الله فاحكم فىَّ ما أراك الله.

قال ﷺ: «حرر رقبة». قلت: والذى بعثك بالحق. ما أملك رقبة غيرها. وضربت صفحة رقبتى.

قال: «فصم شهرين متتابعين» فقلت: وهل أصبت الذى أصبت إلا من الصيام؟!

قال: «فأطعم ستين مسكينا». قلت: والذى بعثك بالحق لقد بتنا جائعين.. ما لنا من طعام.

قال «فانطلق إلى صاحب صدقة بنى زريق ـ قومه ـ فليدفعها إليك.. فأطعم ستين مسكينا: وسقا من تمر. وكل أنت وعيالك بقيتها».

فرجعت إلى قومى فقلت: وجدت عندكم الضيق. وسوء الرأى. ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة وحسن الرأى. وقد أمر لى بصدقتكم فادفعوها إلى.

فدفعوها إليه[1].

يقولون: عندما يمتد بنا العمر.. ونشيخ.. نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد: أن نعود إلى صبانا الذى ولى لنقبض على كثير من الفرص التى تفلتت من بين أيدينا.. ونتجنب كثيرا من الأخطاء التى حاقت بنا.. والأخطاء التى تورطنا فيها.. ولكن العودة مستحيلة.. وقد تمناها من قبل الفارغون وحكاها القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿أرجعنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل﴾.

ولنترك هؤلاء الحمقى يمضغون الأمانى مضغا.. ثم لا يَصِلون إلى ما يؤملون.. ذاكرين العقلاء من المؤمنين والذين تفادوا هذا اللحظة الرهيبة.. فأقاموا فى كياناتهم ضمائر.. حراسا.. يتابعون ويراقبون.. ويحاسبون.. فجنوا فى النهاية من جنس ما زرعوا.. أمانا من عذاب الله...

ومن هؤلاء: الصحابى الجليل سلمة بن صخر رضى الله عنه. فمن هو سلمة ابن صخر.. بطل القصة؟ وما هى طبيعة الذنب الذى ارتكبه؟ ومن هو القاضى؟ وبماذا حكم فى القضية المعروضة؟

إنه فتى عارم القوة.. موفور الحيوية.. له غرام بالمباشرة.. فوق ما يعتاد الناس.. وإذا كان له فى شهور السنة متسع يصيب فيه ما يشاء.. فى أى وقت شاء.. لكن مجىء رمضان يشكل عنده خطرا.. من حيث كان الصيام قيدا.. قد لا يطيقه.. ومن ثم قرر أن يلزم نفسه كلمة التقوى.. فاتخذ القرار القاسى.. حين ظاهر من امرأته.. حبسا لشلال من الشهوة لا يقيده إلا الظهار.

والحق أن هدف الرجل نبيل.. ولكن الوسيلة.. لم تكن على مستوى الهدف:

لقد كانت على حساب زوجة بريئة.. مهضومة الحق ظاهر منها أولا.. ثم دمغها معه بالخطأ ثانيا.. حين فرضه عليها فى دفعة من دفعات الشهوة.. إن الغاية إذن شريفة.. لكنها لا تسوغ الوسيلة العنيفة.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وحسنه.

من حكمة الرجل:

كان سلمة ضعيفا من الناحية العلمية: فلم يكن قرار الظهار سليما من الناحية الشرعية.. لأنه على حساب طرف آخر.. وكان هناك بدائل تعفيه من هذا الذى كان.. ولكننا.. ومع ذلك.. نطالع من صور الحكمة في موقفه ما يلى:

١ ـ إنه ـ ومن الناحية الإيمانية: يمتلك طاقة من الإيمان تعرف ساعة العسرة كيف تستيقظ لتناقش نفسها الحساب.. فى رحلة عذاب حتى يغسل ما جنت يداه.

٢ ـ ثم هو من الناحية الاجتماعية عضو فى عشيرة ينتمى إليها فى مدلهم الخطوب.. لتواجه الأعصار معه.. وما زال على فقره المدقع واحدا منهم غير معزول عنهم. وحين رفضت عشيرته النهوض معه هذه المرة.. فليس لفقره وإنما مخافة العار.

٣ ـ وهو من الناحية النفسية لديه من الشجاعة الأدبية ما يعينه على أن يتحمل مسئولية الموقف وحده.. على ما فى الموقف من قسوة..

فإن لم يكن عقاب.. فتلك هى الرحمة.. وإن كان عقاب.. فهذا هو العدل..

٤ ـ ثم هو من الناحية البيانية قرآنى فى تعبيره حين قال: (.. حتى ينسلخ شهر رمضان) وكان دقيقا فى تعبيره عندما قال: (.. نزوت عليها) ولم يقل جامعت مثلا.. أو باشرت. فكشف بذلك عن طبيعة اللحظة التى نظر فيها إلى زوجته بعين شهوته.. لا بعين عقله.. فكان هذا الاندفاع الكاشف عن عرامة الغريزة الهاجمة!

٥ ـ ولاحظ من فقهه: أنه يقول: (.. خفت أن أصيب من امرأتى شيئا يتتابع بى حتى أصبح..).

فقد تصور نفسه واقعا تحت وطأة غريزته الغلابة.. وقد أقبل الصوم.. وما يترتب على ذلك من مناوشات مع زوجه.. لسوف تجره.. متابعة.. يستدعى السابق منها اللاحق.. وفى تداعيها.. سوف تقع به فى الحرام طبق القاعدة

الإسلامية: من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ومن ثم كان الرد صارما.. بالظهار!!

٦ - وحين رفضت عشيرته الذهاب معه.. كان إحساسه بالندم.. من القوة بحيث حمله مسئولية الموقف كله..

وها هو ذا لا يمشي الهوينا.. وإنما كما يقول هو عن نفسه.

(.. فانطلقت..). وإلى من؟ إلى الرائد الذي لا يكذب أهله ﷺ.

أجل: إنه ينطلق.. مدفوعا بإحساس عارم بالذنب كان من مظاهره:

سرعة الاعتراف.. وفي الصباح.. وقبل أن يباشر عمله العادي!

بين الجهل.. والجهالة!

لقد اتخذ «سلمة» رضي الله عنه قراره.. جاهلا بالحكم.. فلما تبين له أنه خطأ تبرأ منه. وليس هذا فقط بل إن شلالا من الندم تفجر في نفسه.. فحمله ذلك على أن «ينطلق».. ينطلق.. كالسهم.. وإذن.. فقد وضع قدمه على الطريق المستقيم. طريق العودة الظافرة إلى حيث كان قانتا لله حنيفا..

والفرق هائل - كما قرر العلماء - بين الجهل.. والجهالة: فالجهل الذي هو ضد العلم.. عذر قائم.. لكن الجهالة.. التي هي ضد المروءة.. سفالة لا عذر معها.. إن الفرق هائل بين: مؤمن يذنب.. ثم يضج بالأنين طالبا العفو. في قضية نبل لا يدانيها في نبلها البحر.. وأين منه ذلك العربيد.. المستهتر.. الملحد الذي يذنب ذنبا لا تغسل الأبحر أوضاره.. ولا يطهر الأرض من عاره..؟

إن الفرق لهائل هائل.. بين مذنب.. يستيقظ ليجري في عروقه ومرة أخرى الدم المصفى. وبين مجرم عريق الإجرام.. يجري في عروقه ذوب الحمأ المسنون؟!

لقد كان لسلمة رضي الله عنه ماض مشرف في خدمة الإسلام.. لو طرح منه ذلك الموقف.. لبقي له من الأخلاق رصيد ضخم قد يعفيه من الإحساس بالندم.. على ذنب واحد.. بين ألف حسنة وحسنة!

ولكن ما ظنك بالضمير الحى حين تأخذه سنة من النوم.. ثم ينبعث من غفلته لا يرحم صاحبه؟

إنه ذلك الرجل الذى قطعت من يده أصبع واحدة.. إنها واحدة.. لكن الأصبع الأربعة الباقية.. لن تفعل شيئا يذكر!!.

لقد أذنب الرجل ذنبا.. فليتجمد كل شىء.. حتى يأخذ جزاء يغسل ما يحس به من ألم وعلى أى حال: فقد تحمل سلمة رضى الله عنه مسئولية المواجهة.. وأعد نفسه لما يسفر عنه التحقيق.. فكان هذا الحوار المثير. والذى يرسم فى وعينا صورة مثالية فى الدعوة والتربية.. فى عظمة القيادة.. وسماحة الداعى..

منهج الداعى ونقطة البداية:

تبدأ خطة الإصلاح من المدعو نفسه: حين يحس بالخطأ.. راغبا فى التخلص من أوضاره.. فإذا كان الإحساس قويا.. وعميقا.. كان على الداعية أن يتدخل فى رفق فى محاولة ناجحة.. يولد عندها المذنب من جديد.. ثم لا يعود.. أجل: فى رفق.. وبلا تجريح.. ما دام المذنب جاءك يسعى آسفا.. نادما..

وهذا ما حدث بالفعل: فلم يناقشه ﷺ الحساب بعدما أحس من ندم الرجل.. ورغبته فى العود الحميد فلم يزد على أن قال لسلمة: «أنت بذاك ياسلمة؟!!» ثلاث مرات. أنت فعلت هذا؟ كأنما يريد أن يقول له:

سلمة.. بالذات.. صاحب الماضى المشرق.. يفعل هذا؟ كنت أتصور أنك آخر من يتورط فى مثل هذا؟

ولاحظ أنه ﷺ.. يقول له فى المرة الثانية.. والثالثة.. أنت بذاك.. ولم يذكره بالاسم..

وكأنما يريد أن يقول له: لا.. لست سلمة.. لأن مثل سلمه بحكمته المعهودة لا يفعل هذا!!!؟

ولكن.. مع هذا لابد من العقاب.. والعقاب الصارم.. حتى لا يسرى الخطأ بالعدوى.. ثم هى الصرامة التى لا تتجاهل واقع المذنب.. حين تبرز المرونة

فى التطبيق.. بل الحكمة البالغة.. مع عاص غير محترف.. ولكنه مغلوب على أمره.

لقد وعى ﷺ هذه المعانى.. فجعل الرحمة أخيرا فوق العدل.

إن العدل هنا: إما العتق.. وإما الصيام.. وإما الإطعام.. لكن القاضى العظيم يضع الرحمة فوق العدل.. فكلفه بأخذ الصدقة من قومه ليضعها فى مصارفها.. وما بقى فهو له ولأهله طعاما!

لقد حكَّم القاضى هنا روح القانون.. فلم يستعبده النص.. بناء على طبيعة المتهم الذى اعترف.. وبصراحة.. وعاد إليه رشده الغائب.. وكان ﷺ قرآنيا فى حكمه:

فما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم. ثم إنه يتخلق بأخلاقه سبحانه وتعالى.. على ما يقول ابن الجوزى:

[سبحانه من سبقت محبته لأحبابه: فمدحهم على ما وهبهم.. واشترى منهم ما أعطاه لهم].

وها هو ذا ﷺ.. يعطيه ما كان ينبغى أن يأخذه منه.. بلا إعنات. إنه ﷺ يستقبل التائبين بالقلب الوسيع:

يعلم الجاهل.. ويعذر المخطئ.. ويعفو عن السيئات.. ويستر الزلات فى وسطية تأمر بطاعة الله تعالى فيما أمر به مما نقدر عليه.. ليعيننا على ما لا نقدر عليه.

وتلاحظ أخيرا ذلك الود الجميل.. والعتاب الذى لا يستقصى بين سلمة وبنى قومه.. والذين سارعوا إلى تسليمه الصدقة مسرورين بما انتهى إليه أمره..

وفى ضوء هذه الأخوة.. تتنامى مشاعر الود بين أفراد أمة يجد التائب نفسه غريقا فى بحر من همومه..

وإذا بالأيدى الحانية تنتشله من لجة اليم.. فى حركة مباركة تلتئم بها الجراح.. ثم يطلع الصباح على أخوة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى

له سائر الجسد بالسهر والحمى.. وياليت قومى يعلمون.

ويالة من درس بليغ يعلم الناس أن الفتنة بالمرأة نائمة.. ما بقيت مكنونة.. مستورة.. بعيدة عن الأعين..

وإذا كان ذلك كذلك.. لو كانت المرأة حلا لك.. فكيف بالأجنبية؟

إن زوجة «سلمة» معه.. فى البيت.. وملك يديه.. وربما صنعت الألفة أحيانا قدرا من الزهد فيها..

ومع هذا فلما انكشفت منها المستور.. ثارت شهوته..

فكيف بالأجنبية وكل ممنوع مرغوب.. وكشف عورتها مثير.. مثير.. وبخاصة عندما يقف من ورائها هيئات تزين لها كشف عورتها.. فتخرج على الناس متبرجة تتحدى؟!!

ولله در سلمة رضى الله عنه.. لقد كان حقا ابن صخر. إذ كان فى إرادته من الصخر صلابته.. وثباته..

لقد كانت لديه مندوحة أن يخفى ذنبه.. فرارا من اللوم والتثريب.. وطبق القاعدة القائلة:

إذا أذنبت سرا.. فتب سرا... وإذا أذنبت جهرا.. فتب جهرا.. ذلك بأن الناس يعيرون.. ولا يغفرون.. وربك تعالى يغفر.. ولا يعير!!

ولكن سلمة رضى الله عنه.. لم يهدأ منذ وقع فى المحظور.. وكيف يهدأ الأخيار الأبرار وفى قلب كل واحد منهم محكمة.. تفصل فى القضايا.. فلا تقبل النقض.. وترفض الاستئناف!!

لقد كان فيه صراحة الصخرة.. البادية هناك فوق قمة الجبل.. يراها كل الناس.. وإذا كان المنافق: يظهر المودة.. وقلبه يَغُل بالحقد.. فيعيش بوجهين كما يقول الشاعر:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

إذا كان الأمر كذلك.. فإن المؤمن صريح وعمله من جنس جزائه فى الجنة..

مثل هذه الغرف الشفافة التى يرى باطنها من ظاهرها..

وأمة من هذا الطراز.. لا تموت.. أن أمة النفاق.. لا شيء.. فأحياؤها أموات.. أما أمة الإيمان:

فأمواتها أحياء.. أحياء فى ضمائرنا.. أحياء فى قلوبنا..

ومنهم سلمة بن صخر.. الذى رحل عن دنيانا ولكن.. ما زالت ذكراه تعطر مجالسنا.. بهذا الخلق النبيل.

ولئن بقى هذا الخلق.. مثاليا.. عاليا.. لا تبلغه أعمالنا.. فأنه يظل فى وعينا كالنجم العالى.. نهتدى به.. وإن لم نرتفع إليه. ولقد كان هذا على المستوى الفردى: أما على المستوى الإجتماعى: فقد كان هناك ترابط عائلى.. وبخاصة لحظة الخطر..

وتأمل شاهدا على ذلك.. إسراع سلمة إلى عائلته... وليس إلى شلته!

العائلة الطيبة التى انبثق عنها ابنها سلمة كمثلها طيبا.. العائلة التى كان من صلاحها أنها وقفت منه موقفا حازما.. ليذوق وحده عاقبة تصرفه فى محاولة لتأديبه.. حتى لا يعود.. ولا تتكرر المحاولة من غيره.. وليت كل عائلة تفعل ذلك اليوم:

لقد تأخذ بعض العائلات.. تأخذها العزة بالاثم.. حين تقف إلى جانب المخطىء فيها. بالحق وبالباطل.. بما نشم منه رائحة الجاهلية الأولى.. والتى قال شاعرها:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

لكن العائلة الراشدة هنا: تضن بسمعتها أن تنال.. وبشرفها أن يثلم..

وإذا يعاقب واحد منهم بما اقترفت يداه.. أفضل من أن تدان العائلة كلها فى شخصه لو رضيت بفعله.. أو تغاضت عنه.

ورفضها الذهاب معه.. إعلان بشجب عمله.. يؤكد أن ما حدث استثناء.. والقاعدة سليمة.. صادرة فى كل ذلك عن خشية الله تعالى وخوف من معصيته

سبحانه وعصيان رسوله.. أن الإيمان بالله هو محور حياتها: عليه نصادق.. وبه نفارق.. وليست عائلة انتخابية تدور حول محور الأصوات في الانتخابات!!

وهو موقف على أى حال أفضل من أهل المخزومية التى سرقت.. ثم دافع عنها أهلها دفاعا غير مشروع.. كان نقطة خصمت من حسابهم.. إذ وقفوا معها.. وكان عليهم أن يقفوا مع الحق..

وقد برهن تصرف سلمة أن هذا الشبل من ذلك الأسد: إنه فعلا.. من هذه العائلة التى يحمل خصائصها:

فقد كان من الممكن وقد أنصفه الرسول ﷺ أن يعلنها غارة شعواء على قومه.. بيد أنه العقاب.. والعتاب الرقيق.. والذى لم يزد على أن قال لهم:

وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى. ووجدت عند رسول الله ﷺ: السعة: وحسن الرأى!! ويبقى الود ما بقى العتاب..

وقد بقى الود فعلا.. عندما نفذوا أمر الرسول ﷺ حرفيا.. فأعطوه صدقتهم.. مسرورين أن عادت أموالهم إليهم.. وبرىء فرع من الشجر براءة أسعدتهم.. وها هو ذا سلمة.. الغريب يعود إلى عشه.. إلى عشيرته.. كأن شيئا لم يكنَ

أجل.. إنه العتاب.. الذى يعترف فيه المرء بخطئه.. ولا يحاول أن يحمله الآخرين.. وهى لحظة من لحظات الصدق مع النفس.. يكون المرء عندها أقرب إلى فهم الحياة فهما أعمق.. وبالتالى.. أقرب إلى استئناف العيش من جديد.. ناعيا على الغافلين الذين يتبرمون بالجليد على أعتاب جيرانهم.. ثم لا يزيلون ما تراكم من الجليد فوق أعتابهم!!؟

ابتسامة الرسول: وتبقى ابتسامة الرسول ﷺ رمزا من رموز المؤمن الذى يفرح لأخيه.. عندما يأتيه الفرج.. فرجا تتسع به دائرة السرور ينتظم الجميع..

واين ذلك المستوى العالى من موقف اليهودى الذى قرر مع زميله الذهاب إلى الرسول ﷺ يوما فقال له: لاتخبره بأنه نبى.. لماذا؟ حتى لا يسر بذلك!!

إن القلوب الخربة من الإيمان لا تعرف متعة السرور.. ومن ثم لا تطيق أن

ترى فى الدنيا مسرورا.. ولكن المتقى يفرح.. ويفرح غيره:

منطلقا من إيمانه.. أولا..

وثانيا: لما يعلمه من قواعد طب النفوس والتى تقول إحداها:

إن السرور يقوى النظر.. ويزيل الغشاوة.. ومن ثم.. تتسع دائرة الرؤية.. بل وتعمق أيضا.. وهكذا المتقون دائما كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده

روى مسلم بسنده[1] ... عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«آخر من يدخل الجنة رجل: فهو يمشى مرة ويكبو مرة.. وتسفعه[2] النار مرة.. فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذى نجانى منك.. لقد أعطانى الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين.

فترفع له شجرة فيقول: أى رب: أدننى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها. وأشرب من مائها.

فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم: لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها. فيقول: لا يارب.. ويعاهده أن لا يسأله غيرها.. وربه يَعذِره. لأنه يرى ما لا صبر له عليه.. فيدنيه منها. فيستظل بظلها. ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة هى أحسن من الأولى.. فيقول أى رب: أدننى من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها.

فيقول: يابن آدم.. ألم تعاهدنى ألا تسألنى غيرها.. فيقول: لعلى إن أدنيتك منها تسألني غيرها. فيعاهده ألا يسأله غيرها. وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه. فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب مائها.

ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هى أحسن من الأولين فيقول:

أى رب أدننى من هذه لأستظل بظلها. وأشرب من مائها. لا أسألك غيرها..

فيقول يابن آدم: ألم تعاهدنى ألا تسألنى غيرها. قال بلى يارب هذه لا أسألك غيرها.

وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليها.. فيدنيه منها.

فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة.. فيقول أى رب أدخلنيها.

---

(١) ج ٣/٣٩ وما بعدها.

(٢) تضرب وجهه وتسوده وتؤثر فيه.

فيقول يا ابن آدم: ما يصريني [١] منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها.. قال يارب أتستهزئ بى وأنت رب العالمين».

فضحك ابن مسعود فقال ألا تسألونى مم أضحك فقالوا مم تضحك قال هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك قال: من ضحك رب العالمين حين قال أى الرجل: أتستهزئ منى وأنت رب العالمين فيقول: «إنى لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر..».

وفى رواية عَبِيدة ـ هكذا فى النص بفتح العين وكسر الباء ـ عن ابن مسعود بيان لقصة دخوله الجنة: قال هى:

«إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها. وآخر أهل الجنة دخولا الجنة: رجل يخرج من النار حبوا. فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى. فيرجع فيقول يارب: وجدتها ملأى. فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. قال: فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها ملأى. فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها.

فيقول: أتسخر بى. أو أتضحك بى.. وأنت الملك».

قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة.

وفى رواية «.. فيقال له: تمن.. فيتمنى. فيقال له: لك الذى تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا».

وفى رواية أبى ذر رضى الله عنه: .. «يؤتى به يوم القيامة فيقال: أعرضوا عليه صغار ذنوبه. وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنوبه. فيقال: عملت يوم كذا وكذا.. كذا وكذا.. وعملت يوم كذا.. وكذا وكذا فيقول: نعم.. لا يستطيع أن ينكر.. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه.

---

(١) الصرى: القطع أى: أى شىء يرضيك فيقطع السؤال بينى وبينك؟

فيقال له: فأن لك مكان كل سيئة حسنة.. فيقول: رب: قد عملت أشياء لا أراها ههنا..»

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

وفى رواية: «فإذا انقطعت به الأمانى قال الله: هو لك وعشرة أمثاله».

وفى رواية أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: «.. ثم يدخل بيته. فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين. فتقولان: الحمد لله الذى أحياك لنا. وأحيانا لك أى خلقك لنا وخلقنا لك وجمع بيننا فى هذه الدار الدائمة السرور» قال: «فيقول ما أعطى مثلَ ما أعطيت».

تمهيد

من رحمة الله تعالى بالإنسان أنه سبحانه: يبسط يده بالليل. ليتوب مسىء النهار.. ويبسط يده بالنهار.. ليتوب مسىء الليل..

فإذا تصورنا أنه ما من لحظة من زمان فى أى مكان.. الا وهى من ليل أو نهار ظهر لنا أن يد الله تعالى مبسوطة دائماً أبدا..

ومن مظاهر رحمته تعالى: أنه يستحى أن يعذب شيبة شابت فى الإسلام.. ويستحى سبحانه إذا رفع المسلم يديه أن يردهما صفرا.. خائبتين. وفى الحديث ما معناه:

«ما ترددت فى شىء ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن: يكره الموت.. وأكره مساءته.. ولابد له من الموت»!!

ولأنه تعالى هو خالق الإنسان وأعلم بضعفه.. فقد جعل سبحانه الرئاسة لملك الحسنات.. على ملك السيئات.. فإذا أذنب العبد ذنبا.. استمهل ملك السيئات ساعة لعل الهارب من طاعة ربه أن يعود من قريب!

ومع هذا كله.. يؤسفك أن يواجه الإنسان ذلك بالكنود: إنه يركن إلى الدنيا.. وهو .. من هو؟

من تهدم ساعته.. يومه.. ومن يهدم يومه.. شهره.. ومن يهدم شهره.. سنته.. ومن يحمله عمره إلى أجله.. وتحمله الحياة إلى الموت!!

أى أن الحق سبحانه وتعالى يعامل العصاة.. لا بما يستحقون.. وإنما: بما يليق بكماله وجلاله..

بينما الإنسان الضعيف الهزيل.. لا يفعل ـ وفاء ـ ما يليق به.. وإنما: ينسى هذا الفيض الغامر من رحمته تعالى ومغفرته.. ثم لا يتوب.. معتزا بقوته.. وبغناه.. وأين عزته وغناه من ربه وهو: العزيز الحكيم..

ثم إن ربه عليم.. حكيم.. ومع هذا يهرع إلى مذاهب أرضية تفرزها أدمغة

جاهلة.. جافية.. ولا يلاقى فى النهاية إلا سرابا..

ومع هذا الكنود.. وهذا الجحود فإن رحمة الله تعالى تظل تنشر ظلالها على الإنسان.. ولا يحرم منها حتى ذلك العاصى.. الوارد ذكره فى الحديث.. والواقف هناك فى آخر الطابور..

ولك أن تتصور طابور البشرية الطويل الطويل من المسلمين على امتداد الأعصار.. من لدن آدم عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة..

ثم تخيل هذا الرجل. فى ذيل هذا الامتداد الفلكى!!

فماذا كانت ذنوبه: ربما كانت مثل زبد البحر.. وإلى أى حد كان أمله فى دخول الجنة؟ ربما لا أمل هناك.. بينما لهب النار يسفعه ليل نهار..

ومضى الركب الميمون إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار.. بينما بقى وحيدا.. طريدا.. بلا أمل.

وفجأة تداركه رحمة من ربه سبحانه.. وجاءه الأذن بالخروج من النار.. ودخول الجنة.. فكان هذا الحوار المثير؟

حوار بين من؟ بين رحمان السموات والأرض ورحيمهما.. وهذا العبد.. المذنب.. الذى تحكى صحيفة سوابقة ما يندى له جبينه.. ولكنه بالرحمة يولد من جديد.. وعلى هذا النحو الفريد.

من دلائل العبودية:

أولا: لقد عرف هذا الرجل أن له ربا.. وأنه يغفر الذنوب جميعا.

وثانيا: فلما أنعم عليه تعالى بالانعتقاق من النار.. ودخول الجنة كان إحساسه بالنعمة قويا.. فهو يقول:

تبارك الذى نجانى منك..

ثم يقول: (لقد أعطانى الله شيئا ما أعطاه أحدا.. من الأولين والآخرين..)

أى أن مجرد إخراجه من النار نعمة تجعل منه أسعد رجل فى العالمين.

فكيف به بعد أن زحزح عن النار وأدخل الجنة؟

لسوف يحس بنعمة: لو ذاب معها كالملح ذوبانا. أو تبخر فى الجو من خشيته.. لما وفى ربه تعالى حقه في الشكر والعرفان.

وهو معنى دقيق يؤكد أن قلب الإنسان مهما ولغ فى الطغيان ففيه بقية من الإيمان.. سوف تعلن عن نفسها يوما.. ثم يتجه الكيان كله إلى الله تعالى مدفوعا بعاصفة من الحب جارفة.. حب يصدر عن أسبابه الأصيلة النبيلة:

ذلك بأننا إذا كنا نحب الجمال.. فأولى به الله سبحانه وتعالى فهو جميل..

وإذا كنا نحب الإحسان.. فأجدر بحبنا ربنا تعالى.. لأنه المحسن.. حتى إلى المسيء.. بل إلى من طالت رحلته مع الشيطان.. من مثل هذا الرجل.

وعندئذ.. كان هذا الحوار الذى يؤدب الله به نزعة الشدة والعنف فى عباده.. لتتسع صدورهم إلى المخالفين العصاة.. لأنه إذا كان هذا حال الخالق مع مخلوقه.. فكيف بالمخلوق مع نظيره المخلوق؟

كيف لا يمد يده إلى الغريق لينجو.. كيف لا يمهد السبيل أمام العاصي.. ليقف معه على ربوة النجاة.

كيف يتلطف الخالق بالمخلوق فيحاوره.. ثم يرفض المخلوق أن يكون بينه وبين العصاة حوار.. يحاول به فهم وجهة النظر الأخرى.. فإذا لزم الأمر كانت هناك تنازلات.. تقرب كل طرف من أخيه.. وصولا إلى الوفاق؟

كثيرا ما يقف الغرور أو الكبرياء المزيف سدا يمنع النفس من نسيان حظوظها.. ومن ثم تريد أن تتفرد بالحق وحدها.

ولاحظ قوله ﷺ: «وربه يعذره».

يعذره لأنه لا يستطيع أن يغالب موجات الشوق الغلابة..

وما أحرانا أن نعذر كل من أسكرته خمرة الدنيا.. فلعل فى هذا الاشفاق ما يفتح بصيرته المغلقة على حقيقة الطاعة.. فيعود إلينا.. مشمولا برحمته تعالى.. تلك الرحمة التى نرى من آثارها على هذا العاصى الذى لم يعطه تعالى فقط ما

يطلبه.. بل إنه ليعطيه مالا يشعر بحاجته إليه: قبل أن يشعر وقبل أن يطلب!

ومن دروس التربية والدعوة:

ولقد كان من الممكن أن يخرج الله تعالى ذلك الرجل من النار ويدخله الجنة فى لحظة خاطفة.. وينتهى الموقف..

ولكنه ﷺ يواجهنا بالمعاناة التى لاقاها.. حتى استقر به النوى فى الجنة أخيرا هكذا كأنما هى اللقطة التصويرية البطيئة:

فهو يخرج من النار حبوا.. يغالب قسوة الموقف.. ثم هو يمشى مرة.. ويكبو أخرى.. ثم تضربه النار بلهيبها.. وأثناء ذلك.. يتنامى لديه الإحساس بمرارة ما كان فيه.. فإذا شم ريح الجنة بعد هذه المعاناة كان إحساسه بالنعمة أدق وأعمق.

وتزيد هذا المعنى إيضاحا:

كان أحد العلماء من فرط حرصه على الوقت المدخر للدرس والتحصيل.. كان يفت الخبز فى الماء.. ثم يلتهمه فى لحظات.. بدل أن يأكله يابسا.. وفى زمن أطول.

إنه يحصل فقط على الغذاء.. أما متعة التناول.. فلا متعة هناك.. تلك المتعة التى هى من حظ ذلك الذى: يستبد به الجوع. ثم تترامى إليه من قريب رائحة الشواء.. ثم يأتيه الطعام أرسالا.. متنوعا.. فى صحبة كريمة.. يأنس بها.. ثم تتحرك الاضراس.. ويسيل اللعاب.. على مدى يطول أو يقصر.. وعلى هذا النحو يحس المرء بنعمة الطعام.. ونعمة الأكل..

أرأيت إلى الفلاح يضع البذرة فى الأرض ثم ينتظر بزوغها نبتا طويا؟

ماذا لو فاجأته فى الصباح عودا سامقا.. مثمرا.

سوف يحصل على الثمر.. لكن متعة الانتظار.. وحلاوة الأمل في حصاد بعيد.. ورؤية النبتة الخضراء تتنامى مع الأيام.. إن فى ذلك لمتعة!

وقد قالوا: إن أنصار الملاكم.. أعدوا أنفسهم لسهرة ممتعة.. يعيشون فيها

بين الأمل.. والخوف.. ولكن الملاكم هزم غريمه.. وفي الدقيقة الأولى بالضربة القاضية.. ولم تقض هذه الضربة على الغريم فقط.. ولكنها قضت على جمهور البطل.. الذى اختصرت سهرته الممتعة فى دقيقة واحدة.. ومن ثم.. هموا بالفتك بالملاكم؟!!

وعلى ضوء ذلك ينبغى أن نأخذ العصاة من أبنائنا وطلابنا: فإذا تورط أحدهم فى ذنب:

فلابد أولا من العقاب.. لكنه ليس العقاب المدمر.. وإنما هو التأديب المبقى على بقية من الحياة فيه.. تكون بذرة لا ستئنافها أنظف قلبا وأرشد عقلا.. لابد أن يظل مستشعرا خطورة ما كان فيه.. ليتذوق حلاوة ما صار إليه بالعفو أخيرا..

وإلا فإن التدليل.. بالعقاب القليل.. أو بتناسى خطئه فجأة واغراقه بالحب الغامر.. بينما أشباح ذنبه ما تزال تزحم النفوس.. فذلكم هو الدلال المفسد رجولة الرجال!

وحين نتملى نحن الآن موقف الرجل.. يتخلق لدينا الانطباع.

أولا: بعمق سعادة الرجل.. ثم بمعنى الرجاء فى عفو الله مهما كانت أخطاؤنا.. شريطة أن تؤثر العقوبة أثرها.. عائدة بالمذنب إلى الصف.. عبدا شكورا..

ويأخذ المربون والدعاة نصيبهم من الفائدة التى تتقاضاهم حسن التدبير فى مواجهة الخطائين: مستبعدين الأهمال.. أو الدلال.. ذاكرين أبدا: أن العاصى ليس خصما لهم.. بقدر ما هو مريض يحتاج إلى اللمسة الحانية.. أو يائس يتطلع إلى الأمل فى النجاة.. ألم تروا إلى آثار رحمة الله تعالى.. مع هذا العاصى.. بل مع أشد العصاة.. كيف يتودد إليه سبحانه حين يقول للرجل:

تمن.. فيتمنى..

ثم تجىء الإجابة أضعاف أضعاف ماتمنى.. فى أسلوب قمين أن يسعد الرجال.. وعلى مراحل تعطينا من دروس التربية ألا نقدم جائزة العمل دفعة.. بل متعاقبة.. فرارا من ذهاب آثارها طفرة كما جاءت طفرة:

فهو سبحانه وتعالى: يريه شجرة ظليلة.. ثم يمتعه بمشهد أخرى أشد جمالا.. ولا يكاد يستقر تحت ظلها حتى تلوح له شجرة أجمل من الاثنين معا.. وينتهى ذلك كله بمنتهى الآمال جميعا وهو : الجنة...

وهكذا نتعلم: كيف يتخلق الدرس فينا رويدا.. رويدا.. فيظل فى وعينا لا يغيب.

مدى استجابة الأمة:

ولقد كانت استجابة الأمة لهذه الرحمة عميقة..

أولا: فى موقف الرسول ﷺ.. حين يسعده المشهد فيسجل سعادته الكبرى بنجاة الرجل.. بهذه الابتسامة: المشرقة.. العريضة.. بدليل أنه ﷺ ضحك.. حتى بدت نواجذه.. فهى مع اشراقها عريضة تفصح عن قوتها فى قلبه.. وسريانها كماء الحياة فى كيانه كله.

وكان هذا السرور بنجاة المسلم سنة متبعة تجعل حب الخير للغير سمة من سمات المؤمن الحق.. الذى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.. بقدر ما يشجب التشفى من الآخرين.. وارادة نزول الشر بهم:

ونقرأ فى سيرة عمر رضى الله عنه مصداق ذلك لما اشتكى الناس لعمر.. سعيد بن عامر.. فقال عمر:

اللهم ما أعرفه ألا مؤمنا.. اللهم لا تخيب فراستى فيه. فلما ظهرت براءته ابتهج وقال: الحمد لله الذى لم يخيب ظنى فيه!

وتأمل موقف الصحابة رضوان الله عليهم لما نزل قوله تعالى بتحريم الخمر..

لقد فزعوا من أجل اخوانهم الذين ماتوا وكانوا يشربونها قبل التحريم.. وكيف طمأنهم الله تعالى بقوله:

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا﴾ الآية.

ثم سألوا عن مصير من مات منهم قبل تحويل القبلة. فنزل قوله تعالى:

﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ .

وتصور دقة الأتباع حين يروى ابن مسعود رضى الله عنه الحديث فيضحك كما ضحك ﷺ . . فأرانا بذلك نموذج الالتزام بسننه ﷺ التزاما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وفاها حقها . .

نماذج من السنة:

ومن رحمته ﷺ بأمته أنه زار مرة مريضا . . فوجده هزيلا كأنه الفرخ العريان . فسأله:

«أما تدعو ربك؟ أما تسأله شيئا؟» فقال: أقول: اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة . . فعجله لى فى الدنيا . . .

فقال له ﷺ: «سبحان الله . . لا تطيقه! . . هلا قلت: ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾»

قال أنس رضى الله عنه: فشفى!

وأين هذا من ذلك الرجل الذى قيل له: إنك تموت! فقال: وإذا مت فأين يذهب بى؟

قالوا: إلى الله . فقال فما كراهتى أن أذهب إلى من لم أر الخير إلا منه؟

والأمة على الطريق:

وإذ يقف ﷺ حارسا يقظا حتى لا يشتط المزار بالإنسان . . وحتى عاد الفرخ العريان ذلك الإنسان المقبل على الحياة ومباهجها . . عاد عاملا آملا . . فإن الراشدين من أمته ﷺ قد فهموا الدرس . . فكانوا من بعده رحماء بالعصاة . . متصدين لكل نزعة متشددة تشددا يجافى روح هذا الدين المسماح :

توفى رجل فى عهد «عمر بن ذر» وكان ممن أسرف على نفسه . وجاوز فى الطغيان الحد . فتحامى الناس عن جنازته . ورفضوا الصلاة عليه .

فما كان من «عمر» إلا أن حضر جنازته . . ثم صلى عليه .

فلما دلى فى قبره خطب فى الناس خطبة قصيرة . . كانت رسالة عتاب

موجهة إليهم مذكرة لهم بما كان فى صحيفة الرجل من أعمال جديرة بالتقدير فقال يرحمك الله أبا فلان:

صحبت عمرك بالتوحيد. وعفرت وجهك لله بالسجود.

فإن قالوا: مذنب. وذو خطايا. . فمن منا بغير ذنب. . وبغير خطايا؟!!

وهو موقف يذكرنا بما كان يفعله عطاء بن رياح: لقد كان يصلى على الزانية. وعلى ولدها ومن أقيم عليه الحد. ثم يقول(. . من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. .) ومن يدرينا أنهم من أصحاب الجحيم؟!!

من آثار هذا التراحم:

أن «عمر بن ذر» رحمه الله تعالى منطقى فى تصرفه مع روح هذا الدين العظيم. . وهو يلقن المخلصين المتسرعين فى الحكم على الناس درسا فى التثبت قبل الحكم.

وإنه ليقدم العفو. . والمرحمة. . ليحصل فى النهاية على التوبة منتشلا الخطائين من وهدة السقوط. . فهو برحمته وعفوه كاسب على أى حال. .

أما مجرد السخط. . فإنه التصرف العقيم. . إزاء مثل هذا الموقف العظيم. . إنه موقف الذى لم يقدم علفا. . فلن يأخذ لبنا.

إن عمر يفتح قلبه على الخطائين ليجدوا فى حناياه مهربا من ضيق الدنيا. . وهو مع أمثاله.

يحبون الله. . من أجل ذلك يحبهم الخلق. . ويخافون الله. . وعلى خوفهم منه يهابهم الناس. . وعلى قدر شغلهم بالله تعالى يكون تسخير الناس ليكونوا فى خدمتهم.

وهو مع زميله أبى حازم رحمه الله يضع المقياس للحكم على الناس. .

وهو ما قرره أبو حازم فى قوله: ولا تعادين رجلا ولا تناصبنه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله تعالى: فإن تكن له سريرة حسنة. فإن الله لم يكن ليأخذ له بعداوتك؟

وإن كانت له سريرة رديئة: فقد كفاك مساوئه. ولو أردت أن تعمل به أكثر من معاصى الله.. لم تقدر.

يحكى عبد الغنى المقدسى قال: أضافنى رجل. وبعد العشاء. ما ضايقنى إلا ضيف آخر كان معى. فلما نهضت لصلاة العشاء. لم يقم للصلاة. فلما سألت المضيف عن سبب ذلك قال: إنه شمسى. يعبد الشمس! فضاق صدرى. وأحنقنى أن آكل مع رجل كافر.. فقال المضيف فى محاولة للتخفيف من حدة التوتر: إنه رجل كاتب. ولنا عنده راحة.

يقول المقدسى: ثم قمت من الليل أصلى. وهو يستمع. ثم أسلم الرجل. فلما سألته عن السبب قال: لما سمعتك تقرأ. وقع الإسلام فى قلبى فأسلمت.

ولقد هذا فى الموقف نظرة المقدسى إلى الأمور من بعد.. فآمن بأن اقترابك من المذنب قد يكون فرصة يكتشف فيها الحق بعد ما تبين له.. ومادمت بعيدا.. ضاربا صفحا عنه.. فلن يكون هناك فهم.. ولا تفاهم.. ولا إيمان.

ولكن بقدرٍ مًا من المعاشرة.. تتضح الصورة.. ثم يكون قرار الدخول فى إسلام جاءته منه تباشير عن طريق قلب ذاكر خاشع.. خرجت منه الآى معطرة بروح القارىء.. فكان ما كان.. ثم.. لابد أنه وصل إلى حقيقة تفرض نفسها فى مجال الدعوة..

فبدل أن تذرف الدموع أسفا على الواقع.. وبدل أن نصب اللعنات على الخطائين.. علينا أن نحترف.. أن نكون أصحاب خبرة.. تشعر الناس بنا.. ونحجز بها مكانا يشغله أحد.. ذو خبرة.. ينبغى باسم الإسلام ألا تكتفى بتعلمها.. بل لابد أن تتفوق عليه فيها لتكون كلمتك مسموعة.. لأنها صادرة من موطن العزة.

ومن فقه عمر رضى الله عنه: أنه قدم على عمر رضى الله عنه رجل من قبل أبى موسى الأشعرى. فسأله عمر عن الناس هناك. فأخبره. وذكر له: أن رجلا ارتد فقتلناه!

فقال عمر: فهلا حبستموه ثلاثا. وأطعمتموه كل يوم رغيفا. واستتبتموه لعله

يتوب ويرجع إلى أمر الله؟؟

اللهم إنى لم أحضر. ولم آمر. ولم أرض إذ بلغنى[1].

ولعل الرجل هنا ظن أنه بهذا الخبر المثير يحقق رغبة الخليفة فى أخذ المجرمين بالشدة.. بيد أنه فوجئ بما لم يكن له فى حساب:

فعمر رضى الله عنه مع خطورة الجريمة على الفرد والمجتمع ـ كان تعبيرا عن سماحة الإسلام ورحابة صدر الداعية.. حين ذكره بمنهج الإسلام فى معالجة المرتد.. معالجة تقدر إنسانية الإنسان حتى فى أسوأ حالاته.. ثم إنه ليبرأ إلى الله مما حدث معلنا:

أنه لم يحضر ذلك المشهد.. ثم هو لم يكن من أمره.. وها هو ذا يعلن وعلى الملأ أنه غير راض عما حدث!! إحساسا منه بخطورة ما حدث!!

وفاء الصحاب:

ولقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم دليلا على هذه الشفقة على المذنب.. حتى يتوب.. أو ليتوب.. إلا أن يظل سادرا فى غيه..

لما نزل تحريم الخمر سأل المسلمون عن مصير أخوانهم الذين ماتوا وشربوها قبل تحريمها فنزل قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا... ﴾[2].

وهكذا يظل الأحياء أوفياء للأموات.. فليبك إبليس.. وليضحك الإنسان!

أجل.. هذا هو صنع الخالق بعباده.. فما بال المخلوق الضعيف لا يرفق بأخيه المسلم إذا نزغه من الشيطان نزغ.. ثم يوقف عداوته ليحول شراعه فى الاتجاه الصحيح؟

ويعنى هذا أننا بمساعدته على التوبة نشكل فرقة من فرق النجدة تواجه إبليس الذى سوف يعلن عن إفلاسه باكيا.. شاكيا..

---

(١) رواه مالك والشافعى.

(٢) المائدة: ٩٣.

وقد ذكر المفسرون في ذلك أنه لما نزل قوله تعالى:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم..﴾.

بكى إبليس.. ثم جمع أعوانه قائلا: لقد أحبط الله مسعانا. فقالوا: لا عليك: سنستذلهم بالهوى: نغبش الجو.. فتضيع المعالم.. فيسيئون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وإذ يجند الشيطان جنده.. فلنكن مع أخينا فى الإسلام.. وفى خندق واحد.. فى وحدة تجعل غزل الشيطان من بعد قوة أنكاثا. آخذين فى اعتبارنا هذه الحقائق:

١ ـ أننا نقول كلمتنا ونمضى.. وللدين من بعد رب يحميه.

لقد حفظ الله تعالى كتابه.. ثم حمى رسوله من الاغتيال حتى بلغه.. وحمى كذلك أمته من عذاب الاستئصال.. منًّا وفضلا..

٢ ـ إن المهم.. شعور المذنب بفداحة ما صنع.. وعندئذ تكون العقوبة قد حققت أغراضها.. وما زاد فهو التشفى.. وليس التأديب ولا التهذيب.

٣ ـ أن نذكر دائما من موقف هذا الرجل العاصى موضوع هذا الحديث:

لنذكر دروسا ما زالت تلح على ذاكرتنا: فَدَلال الرجل الواضح بين يدى الله تعالى..

والمتمثل فى رغباته الطامحة.. مع أن صحيفة أعماله.. لا خير فيها إلا خيال المآتة! ومع ذلك.. فإن ربه تعالى يسارع في هواه..

ثم إن رسول الله ﷺ لا يذكر اسم الرجل ولا صفته.. فلا تهمنا الأسماء.. ولكن همنا معلق بالعبرة.. ثم الاعتبار بما فيها من دروس.. تطوى الأسماء لتبقى المواقف.. مقاييس تزن بها أقدار الرجال.. بلا تشهير ولا تجريح!

ونقول أخيرا تعميقا للإحساس برحمة الله تعالى نقول:

إذا كان ربنا الرءوف الرحيم لا ينسى حتى من عصاه.. بل من لج فى

عصيانه.. فكيف ينسى من أطاعه؟!!!

فلنتسلح بالأمل.. والأمل العريض ما دمنا قادمين على رب كريم.

أما بعد: فسوف تظل الأمة المسلمة متكاملة فى خصائصها لصالح الدعوة..

وسوف تظل النظر إلى الحقائق مختلفة.. ما دامت زوايا الرؤية مختلفة.. المهم فى النهاية بعد أن نختلف.. أن نأتلف.. ولن يضير اختلاف زاوية الرؤية. مادام الأمر فى النهاية هو التمكين للدعوة..

وقد كان هذا التباين فى الفهم سمة الأمة المحكومة بالقرآن.. الذى كان دليلها على الطريق.. وكان علماؤها علامات.. يرقب بعضهم بعضا.. ويصحح بعضهم فهم بعض.. تصحيحا تتضح به المعالم.. ويستضىء به السالكون:

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

مكتبة الإيمـان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢